خطوة أخرى في سبيل ترقية الكتابة العربية

بقلم : البشير بن سلامة

ما فتئنا فى هذه المجلة نهتم بقضايا اللغة العربية ومشاكلها وخاصة ما يتعلق بالكتابة والطباعة ونحاول فى كل مرة عندما يجد جديد فى هذا الميدان أن نطلع القراء على أبعاده ونحاسب أنفسنا ، نحن أهل العربية ، على الخطوات التى خطوناها والأشواط التى ما زالت تنتظر منا قطعها .

وقد كنا ركزنا بحثنا فى هذا الموضوع على النقطتين التاليتين (1) :

- ضرورة شكل المطبوع لعلاقته لا فقط بتيسير القراءة بل بنوع التفكير.
- مواكبة الاختراعات المطبعية لسد هذه الحاجة (2) .

1) ضرورة شكل كل مطبوع :

لقد بينت أن عصور ازدهار الفكر العربى وافقت فى الواقع فترة كان فيها العرب يعتمدون على الحفظ الذكى والملكات الشفوية الخلاقة أكثر من اعتمادهم على الكتاب الذى لم يكن إلا أداة رجوع وتذكرة . فالذهن كان طليقا منصرفا الى الحوار الشفوى بالرواية والسماع والجدل مدفوعا الى تمرين الحافظة وتنميتها منصرفا عن التقيد بالمكتوب فقط ناهيك أن القوم اكتفوا فى آخر الأمر بما سميته بالكتابة المنقوصة أى الخالية من الشكل اللهم الا ما كانوا يخافون عليه من اللحن والتحريف كالقرآن الكريم .

ولما تقلص روح الحوار وانتفى الجدل المثمر وحل الذكر محل الفكر واعتمد

---

(1) راجع مجلة الفكر خاصة ، السنة 13 ، العدد 8 ، ص 13 وما بعدها والعدد 10 ، ص 2 وما بعدها وكذلك السنة 20 ، العدد 3 ، ص 4 وما بعدها .

(2) تجد أيضا طرقا للموضوع فى كتابين للبشير بن سلامة : اللغة العربية ومشاكل الكتابة ، الدار التونسية للنشر 1971 ـ وقضايا ، الدار العربية للكتاب 1977 .

القوم على المكتوب المنقوص تجمدت القرائح وانتفى الخلق والابتكار ووافق ذلك عصور الانحطاط والتدهور والجمود .

ثم عندما احتك العالم العربى بالعالم الغربى وعرفت النخبة اللغات الحية وشاعت الطباعة وانتشر الكتاب وبدأت النهضة اكتفى أهل العربية بالكتابة المنقوصة فهم ـ إلا الاستثناءات التى لا تخلو منها قاعدة ـ أحد ثلاثة :

ـ فريق استعصت عليه الكتابة المنقوصة فأخلد الى الأمية أو هرب الى لغة أو لغات أجنبية لأن حركاتها (voyelles) فى صلب حروفها .

ـ فريق اقتصر على الكتابة المنقوصة فانطبع بالتفكير الملائم لها أى التفكير المفتقر الى الدقة والتمييز الحصيف إلا المتبحرين فى اللغة العربية المتدربين عليها وهم قلة فى المجتمعات العربية ويمكن اعتبارهم بمثابة الاختصاصيين (وهو ما سأبينه فى هذا المقال وأركز عليه البحث) .

ـ فريق بقى يتعامل مع اللغة العربية ولكنه تخلص من آفات الكتابة المنقوصة (أو الطباعة المنقوصة) بالاعتماد على لغة أو لغات أجنبية وهى النخبة التى نهضت وتنهض بالمجتمعات العربية وتعمل على دفعها فى مصاف الامم المتحضرة والمتقدمة .

ومعنى هذا أن الكتابة العربية المنقوصة أى الخالية من الشكل التى يعتمد عليها الكتاب والجريدة والمجلة لن تكون وحدها فى مجال المقروء ، بالنسبة الى الجماهير العربية أداة ثقافة حقيقية اى أداة تفكير دقيق مميز ووسيلة تكوين عصرى نابه ذكى لا يكون عرضة للتعصب والانغلاق والتحجر والنظر القصير السطحى .

فالكتابة المنقوصة لا تساعد بطبيعة الحال على القراءة الصحيحة الا بعد الفهم الصحيح بينما اللغات ذات الحروف اللاطينية تبيح القراءة الصحيحة قبل الفهم ، وهنا نلاحظ أن القراءة الصحيحة بالنسبة للعربية نادرة جدا ولا يحذقها إلا ذوو الاختصاص وحتى هؤلاء فانهم يترددون فى كثير من الالفاظ ويحتاجون الى الرجوع للقواميس .

وحدث ولا حرج عن الاجانب من غير المختصين الذين يتعلمون العربية ، فانهم يصطدمون ـ فى رغبتهم فى التعامل مع الكتاب والجريدة والمجلة العربية ـ بعقبة الشكل فيحجمون عن المضى فى قراءة هذه اللغة وتخسر الأمة العربية بهذه الصورة اصدقاء لها كانوا ـ ربما ـ خير من يعرف بحضارتها ويناصر قضاياها .

وهكذا يلجأ أغلب الناس الى قراءة متعثرة تقريبية ينجر عنها فهم تقريبى غير صحيح ، ينتج عنه بطبيعة الحال تفكير لا يتصف بالدقة والتركيز والتمييز . وهذا أمر يحتاج الى إثباته قطعيا، الى القيام بتجارب تعتمد الكتابة العربية (أنا بصدد الاستعداد للقيام بهذه التجارب الآن وقد وجب الاعتناء

بحديقتنا كما قال فولتير على لسان بطله كانديد) (3) .

ولكن يمكن المقارنة مع التجارب التى قام بها الغـرب فيما يخص الكتـابة اللاطينية رغم سهولة قراءتها ويسرها اذ جزم العلمـاء عندهم أنه كلما كانت القراءة سريعة ازداد الفهم والطاقة على الحفظ لان ما تقوم به العين من عمليات بصرية عندما تتحرك آلة القراءة فى الدمـاغ ليست متعلقـة فقط بالهيكـل البصرى البحت بل هى من طبيعة ذهنية لا ترتبط بعوامل قوة البصر وضعفه بل بعوامل لها علاقة بملكاتنا الابلاغية سواء العصبية منها أ والمتصلة بالذاكرة أو الذكاء .

فالعلاقة بين سرعة القراءة والملكات الذهنية للقارىء ثابتة كما أن صورة الحروف لها دخل كبير فى هذه السرعة فيقـول أحـد الاخصائيين : « يجب النظر فى الاسباب التى تجعل العين اذا هى القت ببصرهـا على سطـر من حروف « قرامـونت » Garamont (أحـد مصممى الحـروف اللاطينيـة التيبوغرافية) تتخطاه بسرعة من دون عراقيل ، منشغلة بالنص ، منصرفة عن الحروف بينما بالنسبة للعيـن الملقيـة بنظرهـا على سطـر من حـروف « ديـدو » (Didot) (مصمم آخر للحروف) تسير ببطء وتسلط نوعـا من التفقد يشدها الى الحروف عوضا عن إطلاق العنان للفكر لينشغـل بالافكـار التى تمثلها هذه الحروف (4) .

لهذا فانه حان الوقت للتثبت من هذا الموضـوع والقيـام بالتجـارب التى تربط بين المستوى الثقافى للجماهير، المعتمد فى ركن من أركانه على المقدوء ، وبين هذه الكتابة المنقوصة .

ذلك أن كل ما قام ويقوم به المصلحون سواء فكريا أو اجتماعية أو دينيـا أو سياسيا يبقى مفهوما على وجهه الصحيح فى نخبـة قليلـة بينما الاغلبيـة الساحقة لا تقدر على النفاذ الى المقروء بصورة مدققة وليس كالمقروء ، كتابا كان أو جريدة أو مجلة ، أدعى الى التدبر والتروى ، وانفذ فى النفس وأحيا للعقل

---

(3) قال كانديد فى قصة لفولتير بنفس العنوان : « أنا أعـرف أيضـا أنه يجب الاعتناء بحديقتنا »

«je sais aussi qu'il faut cultiver notre jardin» Voltaire, Candide XXX

(4) لزيادة تبين هذه المسألة يمكن النظر فى هذه الكتب :

— Roland Barthes, le degré zéro de l'écriture, Paris, gonthier, 1965
— François Richandleau, La Lisibilité, Denoël 1969
— Alberto Moravia : «Communication» in une Chose est une Chose : Flammarion, 1969

وانما الوسائل الاعلامية الاخرى وخاصة السمعية البصرية هي آنية تؤثر بسرعة وتزول بسرعة فهي بالنسبة للمقروء كالطيف أمام الكائن السوى .

ولهذا فانه طالما لم يقرر أهل العربية في أعلى مستوى الكتابة التامة الشكل فان العربية تبقى الى أبد الآبدين عرجاء تحتاج دائما الى عكاز تعتمد عليه ، يتمثل في لغة أجنبية بينما أصبح في الامكان اليوم عن طريق السبك بالصورة شكل الجرائد والمجلات والكتب بسرعة غريبة بدون تكاليف إضافية.

وهنا ناتي الى النقطة الثانية من بحثنا وهي المتعلقة بتحويل التكنولوجيا.

2) مواكبة الاختراعات المطبعية العربية لأحدث الطرق التكنولوجية :

يجب أن نشير في هذا المجال الى أن طرقا مختلفة تعد بالمآت قدمت في سبيل حل مشاكل الحروف العربية سواء في ميدان الرقن أو الطباعة أو التلكس أو الدماغ الالكتروني وكنا نبهنا اليها على صفحات هذه المجلة ودعونا الى البت فيها . ومن حسن الحظ ان الدول العربية اتفقت على طريقة واحدة يجب أن نعترف بأنها هي القادرة على الدخول في حيز العمل بسرعة . وهي طريقة الاستاذ أحمد الأخضر غزال المغربي مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط .

ولقد نالت هذه الطريقة (العربية المعيارية المشكولة ذات الشفرة العربية) (ASV - CODAR) (5) موافقة المحافل الثقافية كالمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم واليونسكو (الدورة 19 نوفمبر 1976) وندوة وزراء العرب المكلفين بتطبيق العلوم والتكنولوجيا في مجال التنمية (الرباط أوت 1976) .

وهذه الطريقة هي عبارة عن مجموعة من الحروف المنمطة (normalisés) صممت لتأليف النصوص وتبليغها باللغة العربية بواسطة التقنيات الموجودة في ميادين الطباعة والرقانة والاعلامية والمواصلات البعدية (télécommunication) . ومزية هذه الطريقة هي انها حلت مسألة الشكل ولم تبق عقبة تقنية في سبيل الكتابة العربية الكاملة .

وقد بينت ندوة اليونسكو المجتمعة في نيروبي سنة 1976 مزايا هذه الطريقة إذ هي نوهت بأهمية الحروف العربية المعيارية والمشكولة في انتاج الكتاب وتصميم الاعلام ونشر الثقافة ورفع الأمية بالنسبة للغة العربية وأكدت ان ما قام به المعهد في مجال الحروف الطباعية وأمهات الحروف والسبك بالصورة والرقانة وناظم الآلة والتلكس ، هو متماش مع الطرق المستعملة في

(5) لمزيد الاطلاع على هذه الطريقة يمكن الرجوع الى كتيبين أصدرهما معهد الدراسات والابحاث للتعريب بالرباط : أ) طريقة الأخضر غزال للتأليف العربية المعيارية — ب) ASV - CODAR .

الاعلامية ذات الحروف اللاطينية وممكن تطبيقه على الآلات الخاضعة للمعدات المعيارية العالمية . وعلى أساس هذا أوصت اليونسكو الدول المعنية بأخذ جميع الاجراءات لتطبيق هذه الطريقة .

وان أوجه استعمال هذه الطريقة كلها عملية سواء المتعلقة بـ : المحارف الطباعية (Caractères typographiques) أو الأمهات المؤلفة السابكة للمحارف المتحركة (Matrices - mobiles) أو أمهات الحروف (Matrices - ligne bloc)أو التأليف بالتصوير (Photo - composition) أو المرقنة (Machine à écrire) أو الشفرة ذات السبعة عزوم (Codage à sept moments) أو الابراق (Télex) أو الترئية على الطرفي (Visualisation sur terminal) وهي ترئية المحارف على الشاشة المهبطية بواسطة أمهات نقطية ، وبهذا أدخلت هذه الطريقة العربية المشكولة في ميادين كانت الى حد الآن موصدة في وجهها ، فهي تمكن العرب من استعمال لغتهم في الوسائل العصرية للتواصل اللساني في ميادين المواصلات البعدية والتوثيق والاعلام وتسيير المؤسسات .

الخلاصة :

وبعد هذا فان الذي ينتظرنا عمله أمران :

1) الاسراع بالقيام بتجارب تقنع الجميع بأهمية الشكل واعتبار الموضوع يتعلق أساسا بالنهضة بالجماهير العربية .

2) تطبيق ما اتفقت عليه الدول العربية في مجال تحويل التكنولوجيا وذلك بحض رجال الاعمال والشركات على صنع هذه الآلات في الأقطار العربية وتسويقها (6) .

هذا ما جد في ميدان ترقية الكتابة العربية أردت إحاطة القارىء العربي علما به ملاحظا أن التقدم في هذا المجال سائر ، لا محالة ، خطوة خطوة ولكن ببطء كبير . وإنني آمل أن تكون هذه الخطى أكثر سرعة في ميدان اعتبره مصيريا .

البشير بن سلامة

---

(6) على سبيل المثال فان المرقنة العربية (Machine à écrire) المصنوعة حسب هذه الطريقة جاهزة عند دار من الدول الاوربية ولكنها لم تسوقها ولم يعرفها حتى الموزعون التجاريون في البلدان العربية بينما وجود هذه المرقنة بالحروف المشكولة تجد مثلا سوقا كبيرة في مجال التعليم في كل البلدان العربية .

الأفـكـار

شعر: جعفر ماجد

عجبًا لِهذَا الدّهرِ كيْفَ يَصَرّفُ ! *
مَهْمَا عَرَفْتُمْ حكمهُ لمْ تعرِفُوا
تَمْضِي بِنَا الأيَّامُ فِي دَوَرَانِهَا
كالرّيحِ تَجْتَاحُ الحيَاةَ وَتَعْصِفُ
وَالمَرْءُ فِي كَفِّ الزّمَانِ كَرِيشَهٍ
يَرْمِي بِها فِي عَالَمٍ لاَ يُعْرفُ
مَا أقصَرَ الأعْمَارَ حتَّى تُشْتَرَى
وَيَسُومُهَا بِالبَخْسِ منْ لاَ يُنصِفُ
وَالنَّاسُ إنْ حكَمُوا عمُوا ، فتَرَاهُمُ
لاَ يأْمَنونَ إذَا مَشَوْا أنْ يزْحفُوا
وَالنَّاسُ إنْ خَافُوا يخافُوا جَاهِلا
لَكِنّ شرّ الظّالمينَ مُثَقَّفُ
فَإِذَا اشتهَى لاَ يَرْعَوِي ، وَإِذَا اشتفى
لاَ يَرْتَوِي ، وَإِذَا قسَا لاَ يَرْأفُ
يَحْتَالُ فِي الفِعلِ الأثيمِ بِعِلْمِهِ
كالرّاهِبِ المُرْتَدّ حينَ يُجدّفُ

(*) هذه القصيدة ألقيت فى مهرجان الشعر الرابع عشر المنعقد بدمشق فى أواخر نوفمبر 1979 .

اقْرَأْ تَوَارِيخَ الشُّعُوبِ تَجِدْ بِهَا
كُتُبًا بِأَفْعَالِ الطُّغَاةِ تُؤَلَّفُ
فِيها مِنَ الفِكْرِ العَمِيلِ صَحَائِفٌ
يَنْدَى لَهَا الحَقّ الهضِيمُ وَيَرْجُفُ
قَدْ كَانَ فِي مَاضِي الزَّمَانِ جَبَابِرٌ
جَارُوا كَمَا شَاءَ الزَّمَانُ وَأَسْرَفُوا
حَقَنُوا العُقُولَ بِظلْمهمْ وبِسمهِمْ
حتَّى يَذِلَّ خُصُومُهُمْ أَوْ يُتلفُوا
وَالسمّ يُسْقَاهُ رِجَالٌ آمَنُوا
أنّ الحَيَاةَ عَقِيدَةٌ وَتَصَوُّفُ
لَكِنَّمَا الأَفْكَارُ يَنْمُو غَرْسُهَا
وَإِذَا نَمَتْ فَزُهُورهَا لاَ تُقْطَفُ
تَمتَدّ أَيْدِي العَابِثِينَ لِغَضِّهَا
وَتَدُوسُهَا الأَقْدَامُ حِينَ تُفَوَّفُ
حَتَّى إِذَا قَالُوا : ذَوَتْ وَ تَفَتَّتَتْ
وَ غَدَتْ علَى صَفَحَاتِ نهْرٍ تجرفُ
طَارَتْ وَقدْ نَشَرَ الرَّبِيعُ أَرِيجَهَا
سِرْبًا طَلِيقًا فِي الفضَاءِ يُرَفرِف
يَا أُمَّةً (1) لاَ تَنْتَهِي أَوْجَاعُهَا
وَدُمُوعُهَا منْ أَلْفِ عامٍ تُذْرَفُ
قَدْ كُنتِ شَمْسًا بالضِّيَاءِ سخيَّةً
مَاذَا دَهَاكِ فَعُدتِ نَهْبًا يُنْتَفُ ؟

(1) المقصود بها الأمة العربية .

نَجَمَ الخِلاَفُ وَأَنْتِ طِفْلٌ يَافِعٌ
وَبَقَى الخِلافُ وَأَنْتِ شَيْخٌ يَهرِفُ
أَغَنِيَّةٌ ؟ لاَ شكَّ مَالكِ وَافِـــرٌ
لَكِنَّهُ فِي غَيْرِ سوقِكِ يُصْرَفُ !
أَكَبِيرَةٌ ؟ لاَشَكَّ أَرْضُكِ رَحْبَـةٌ
لَكِنَّهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُخْطَـفُ !
أَكَثِيرَةٌ ؟ لاَ شَكَّ نَسْلُكِ عَارِمٌ
لَكِنَّهُ مِثْلَ الأَسِيرِ مُكَتَّـفُ !
لَمْ يَقْلِبِ التَّارِيخُ ظَهْرَ مِجَنِّـهِ
إِلاَّ وَحَظُّ الفِكْرِ فِيكِ تَعَسُّـفُ
كَمْ مِنْ عَظِيمٍ عَاشَ فِيكِ مُعَذَّبًا ؟
كَذَبُوا عَلَيْهِ بِالمَزَادِ وَ أَرْجَفُوا
كَمْ مِنْ كِتَابٍ لَمْ يَجِدْ قُرَّاءَهُ ؟
قَدْ زَوَّرُوا أَفْكَارَهُ أَوْ حَرَّفُـوا
حَتَّى عَرَفْنَا مِحْنَةً فِي مِحْنَـةٍ
حَتَّى غَدَا تَارِيخُنَا لاَ يُوصَـفُ
وَإِذَا السِّيَاسَةُ حَرَّكَتْ أَهْوَاءَنَا
فَالحِبْرُ يُصْبِحُ تُهْمَةً وَيُجَفَّـفُ
وَ طَبِيعَةُ السُّلْطَانِ تَأْبَى أَنْ تَرَى
جَيْشًا مِنَ الأَقْلاَمِ لاَ يَتَوَقَّـفُ
يَمْضِي إِلى غَايَاتِـهِ مُتَعَجِّـــلا
وَيَظَـلَّ يَمْشِي فِي الزَّمَانِ وَيَزْحَفُ

فَاسْتَأْجَرُوهَا كَيْ تُحَطِّمَ نَفْسَهَا
وَتَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يَقُولُ ... وَيُخْلِفُ
وَ المَرْءُ أَقْسَى فِي عَدَاوَةِ نَفْسِهِ
مِمَّا يَكُونُ بِهِ العَدُوّ وَأَعْنَفُ
ذَاكَ انْتِحَارُ العَامِلِينَ بِفِكْرِهِمْ
إِنْ أَعْجَزَ الحُكَّامَ قَتْلٌ أَشْرَفُ
مَا دَامَ هذَا الدَّهْرُ سَيِّدَ أَمْرِهِ
فَالدَّهْرُ لاَ يُبْقِي وَلَكِنْ يُتْلِفُ
هَلَكَتْ شُعُوبٌ فِي طُفُولَةِ عِزِّهَا
لَمَّا اسْتَبَدَّ بِهَا الغَشُومُ المُجْحِفُ
الأَنْبِيَاءُ مَضَى زَمَانُ ظُهُورِهِمْ
وَأَتَى زَمَانٌ بِالرَّدَاءَةِ مُقْرِفُ
مَا رُقْعَةٌ إِلاَّ عَلَيْهَا وَاحِدٌ
يَدْعُو إِلَيْهِ وَفِي يَدَيْهِ مُصْحَفُ
مَا بَالُهُمْ سَرَقُوا السَّمَاءَ فلا تَرَى
إِلاَّ مُسَيْلَمَةَ يَصِيحُ وَ يَهْتِفُ
قَالُوا : خَلَقْنَاكُمْ ! فَقُلْنَا : مَالَكُمْ
ـ إِنْ صَحَّ قَوْلُكُمُ ـ بِنا لمْ تَرْأَفُوا ! ؟
قَالُوا : رَزَقْنَاكُمْ ! فَقُلْنَا مَالَنَا
ـ إِنْ صَحّ قَوْلُكُمُ ـ بِكُمْ نُسْتَنْزَفُ ! ؟
فَرَصَاصُكُمْ بِصُدُورِنَا ، وَرِمَاحُكُمْ
بِظُهُورِنَا ، وَدُمُوعُنَا تَتَكَثَّفُ

لَـمْ يَعْـرِفِ التَّارِيخُ مُنْذُ قُدُومِكمْ
حَالاً كَحَالَتِنَا تَسُوءُ وَتُوْسِفُ
الشَّرْقُ مُشْتَعِـلٌ يَمُـجّ دِمَـاءَهُ
وَالغَرْبُ بُرْكَانٌ أَرَاهُ سَيَقْـذِفُ
وَ الحُكْمُ حَبٌّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلّكٌ
وَالحبُّ صِدْقٌ لَيْسَ فِيهِ تَزَلُّفُ
فَدَعُـوا الشُّعُـوبَ علىَ حَقِيقَةِ طبعِها
عَفْوِيَّـةً ... تُعْطِي وَلاَ تَتَكَلَّفُ
عَهْدُ الطَّوَائِفِ لمْ يَزَلْ مُتَوَاصِلا
أَفَمَا عَزَمْتُمْ بَعْدُ أَنْ تَتَآلَفُـوا ؟
فَيَعُـود لِلأُفُـقِ الكَئِيـبِ رُوَاؤُهُ
وَنَسِيرَ فِي أَمْنٍ ... وَلاَ نَتخلَّفُ

جعفر ماجد

فى الأعداد القادمة تقرؤون

العنكبوت (قصة)	عائدة عبد الحميد
منذ عرفتها (شعر)	ايفان ميناتى
دمعة أسف (شعر)	حياة بن الشيخ
حول تاريخ مدينة منزل تميم ـ 2 ـ	جلول عزونه
اسبح باسم المرارة (شعر)	محمد على الهانى
رسالة المقروء والمنطوق (دراسة) ..	محمد العياشى
الأرخبيل (رواية) ـ 2 ـ	يوسف رزوقه
البطل اليسارى فى الرواية العربية المعاصرة ـ 2 ـ	المنصف وناس

رعى الله أياما بتونس إنها ...

بقلم : ابراهيم السامرائي

أي والله لقد أحببت هذه الحاضرة الطيب أهلها (*) وقضيت فيها عاما دراسيا ، وكان ذلك منذ سبع عشرة سنة . كنت مدرسا في كلية الآداب ، وكانت زيارتي بدعوة وطلب من كتابة الدولة للتربية القومية .

وأنا أشهد على هذا كلا من الاستاذ العروسي المطوى والاستاذ الحبيب نويرة اللذين كانا سفيرين للجمهورية التونسية في بغداد كما ان الاستاذ المسعدي وهو كاتب الدولة يعرف هذا .

أقول : أشهد هؤلاء السادة الافاضل لأفيد أني لم أنافس أحدا في مكانه في هيئة التدريس ولا قدمت طلبا لهذا العمل الجامعي . غير أن الاخوة في كلية الآداب في تونس قد ازوروا عني وجلهم ممن أعرفه في باريس أيام الطلب . لم اجتمع الى أحد منهم في تونس ولم يضمني مجلس واياهم ، ولم أحظ بزيارة أو سؤال من أي منهم بالرغم من أني أعرفهم كل المعرفة . وقد يعجب القارىء ان قلت له أني حللت في كلية الآداب ولم أر مسؤولا ولا عميدا ولا أحدا آخر ، والعميد يومئذ الاستاذ أ. ع. لقد أعطوني جدولا بمحاضراتي في الكلية وهي ثلاث أقضيها في يومين ثم أغيب عن الكلية وليس من سؤال حتى يأتي الاسبوع الجديد فاستأنف العمل في المحاضرات الثلاث . ولم ألق في عملي الا زمرة من الطلبة مازلت أكن لهم مودة أكيدة ، ومنهم من يعمل في هيئة

(*) وافتنا من صديقنا الاستاذ ابراهيم السامرائي هذه الرسالة راغبا في نشرها على صفحات الفكر فملنا ان تلبية هذه الرغبة ونحن نلتزم عملا بحرية الفكر ، بنشر ما يرد علينا من ردود الاساتذة الجامعيين .

التدريس فى الكلية فى هذه الايام كالاستاذ جعفر ماجد والاستاذ الطيب العشاش وغيرهما .

ومن المفيد أن أشير الى أنى حين كنت آتى الى الكلية قبل موعد المحاضرة بربع ساعة أظل أذرع أروقة الكلية جيئة وذهابا منتظرا حلول الوقت ، وهذا يعنى أن ليس من غرفة أجلس فيها لا خاصة بى ولا مع جماعة أخرى . ومن الطريف أن أشير الى انى كنت ذات مرة أغدو وأروح فى رواق الكلية ، وأنا أنظر فى لوحات الاعلانات وغيرها مما هو معلق يقرؤه الطلاب واذا بأحد من العاملين فى الكلية ولم يكن العميد ، يحيينى ويسأل عن حالى فرددت عليه التحية وقلت له : ان حالى كحال المتنبى الشاعر العربى حين وقف بشعب بوان فقال :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

أريد أن أقول : ان الكلية هى كلية آداب عربية فى بلد عربى مسلم الا أن كل ورقة فى الكلية مهما كان الغرض منها عاديا مكتوبة باللغة الفرنسية ، كأن يطلب أحد المسؤولين طالبا أو طلابا لحاجة ادارية . ان هذه الورقة البسيطة مكتوبة بالفرنسية ، وقد تعجب اذا قلت لك : ان قوائم اسماء الطلاب فى كل فصل مكتوبة بالحرف اللاتينى . انك لا تجد اسم « أحمد » واسم « محمد » واسم « عبد القادر » بهذا الرسم العربى ...

وكنت فى خلال اقامتى فى تونس معنيا بالادب التونسى والفكر التونسى وقد فسحت لى مجلة « الفكر » فى صفحاتها فنشرت مقالات عن « الشاذلى خزنه دار » وقصة « امارة الشعر » لقد عرضت لهذه الموضوعات فكان لى رأى يذكره المعنيون بالموضوع فانبرى لى السيد محمد الهادى العامرى غاضبا مبتئسا وقد وسم رده بعنوان هو : « ماذا يريد هذا الوارش ؟ » .

وقد أجبت عن الرد فأشرت الى أنى لست « وارشا » وأنا أعنى بالادب التونسى عنايتى بالادب العراقى وليس من مانع ان أقول فى أديب عربى تونسيا كان أم عراقيا أم أحدا آخر من الناس .

ولم تنل منى كلمات السيد العامرى فانى ما زلت اضمر له المودة الاكيدة أمد الله فى عمره ان كان حيا وأسكنه وارف جنته ان انتقل من هذه الفانية الى الاخرى الباقية .

ولا بد لى أن أحيى مجلة الفكر تحية خاصة فأقول : ان هذه المجلة عامل مهم من عوامل النهضة الادبية فى تونس فقد تخرج بها أجيال عدة فكان فيهم الناقد الالمعى والاديب المفكر والشاعر المبدع . وكان لهذه المجلة مكانها فى اعلاء العربية فكرا وأسلوبا ، وانها مهدت لمعركة التعريب التى أحسن المسؤولون فى تونس فى الاخذ بها بتبصر وتؤدة ودراية فلم يقعوا فى الخطوات الارتجالية التى وقع فيها غيرهم .

أقول : ان المسيرة الثقافية لهذه المجلة الرائدة العامرة عمل كبير يحسن ان يكون موضوع دراسة لنيل درجة الدكتوراه . وليس من عجب ان نكون على هذه الحال وقد حظيت من الاستاذ « المفكر » صاحب « المواقف » الفلسفية بالعناية والاهتمام والتخطيط والتصميم .

وبعد فهذه كلمات يسيرة اختزنها فى ذاكرتى رأيت أن الحاجة التاريخية تدعونى الى تسجيلها . ولا يحسبن القارىء انى أحمل هذه الذكريات وفيها ألم ذلك أنى احتفظ لنفسى بذكريات عذبة حبيبة تتصل بمعرفتى للتونسيين الآخرين من أهل العلم والمعرفة ولا أكتم القارىء انى محتفل بأخوتى للاستاذ الكبير محمد مزالى والاستاذ البشير بن سلامة والاستاذ المطوى والاستاذ المسعدى .

وكيف أنسى الخالد الذكر الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وغير هؤلاء ممن شرفت بمعرفتهم وغنيت بصداقتهم ومودتهم .

حيا الله الخضراء التونسية وعمر أرجاءها وجعل الخير كل الخير على يد الصفوة البررة من أبنائها .

ابراهيم السامرائى

كلمات منثورة

بقلم النسر المحدود

الممثل الحاذق الممتاز ينسيك أصلا أنه يمثل وأنه ليس إلا «يلعب» دورا ، فاذا أنت لا ترى فيه إلا شخصيته الثانية المستعارة لبسها ولبسته هوية أصيلة .. نسبا لا مطعن فيه ، وكأنه يحيا على سجيته لا تطفل ولا ادعاء ولا تكلف ولا استكراه لما أوتيه من احكام التقمص ومدى الاشعاع وقوة الحضور .

***

ترى الأنف الذى يوجه غيرك ولا ترى الشىء الذى تصدر وجهك!؟

***

ما تعطيه مدنية اليوم بيد تسترده بالاخرى ، وليته كان عطاء سليما غير مغشوش !

***

لقاء الأحبة قوت وحياة .

***

موسيقانا ... وهل لنا من موسيقى ؟!

غناء لا لون له ولا طعم ولا روح .. نغم ملفق .. نشاز مستعار بعضه من الشرق وبعض من الغرب وليس إلا التقليد !

ومع ذلك فتراثنا الحى يختلج فى أعماقنا ، ويتلجلج فى صدورنا جنينا رائعا يقتل على الدوام ... كالأخرس طفحت نفسه بالرؤى والأحاسيس ، يكاد يختنق طربا ويفحم ، ولا صوت ولا صدى فى عالم الضياع والخذلان والتنكر والجحود .

***

البغى التى تأكل بجسدها أطهر وأنبل من ذاك الذى يبيع ضميره فى سوق النخاسة هانئا مستريحا كأن لم يتدنس ولم يمسخ ذاتـه ولم يخرج من انسانيته .

***

لا وجود للانسان أصلا . الانسان وهم يجهد ليكون .

***

الكاتب الحق ليس يهتم بالمجد والشهرة حتى ولا بالبقاء والديمومة قدر ما يهتم بالجهد الذى يحقق هذا البقاء والدوام .

إنما جزاؤه فى ذات الجهد وفى صميم الخلق وأن يحس احساس اليقين أنه بذل ثمن الدوام والبقاء ؛ فما من صفحة ولا فقرة أو كلمة من كلماته المعتصرة من جوهر كيانه إلا وهى ذرة من الخلود ... ذرات متراصة متلاحمة تتحدى باشعاعها الباقى الموت والعدم .

***

ما من حضارة إلا وهى كصانعيها الى زوال .

إنما العبرة بما بذلته من جهد فى خلق الانسان .. تطهيرا لمعدنه المشترك الهجين ، وتخليصا له من براثن الحيوان الكامن فيه .

***

أن تتذوق حياة البشر وتسيغ كيانهم شرابا هنيا مقبولا ...

وتدع ذاك الكيان يتسرب الى نفسك على مهل ويشيع فى أرجـاء ذاتك ، وأنت تصغى الى سريانه حتى يقر قرارا ويشف صفاء ...

أن تكون فضاء حيا .. إناء شاعرا ذكيا .. أليس فى ذلك طريـق الى المعرفة الحق وسبيل من سبل الحدس الصادق الرفيع !؟

البشير المجدوب

الصحراء صلة بين إفريقيا السمراء وأقطار المغرب الكبير

بقلم : محمد فنطر

ثبت على ضوء مكتشفات عرضية عديدة وتنقيبات نظامية علمية أن الصحراء لم تكن قفرا خلال العصور الحجرية بل كانت مهدا لحضارات بدائية تشهد بعمرانها . فلا تخلو المتاحف المغربية وغير المغربية من أدوات سبكت من حجارة كان يستخدمها سكان الصحراء : مهارس ـ مطاحن ـ أسلحة من سكاكين وخناجر ورؤوس رماح وغيرها أكثرها يعود الى العصر الحجري الحديث (1) .

ومن بين المواقع الاثرية التي عثر فيها على بعض هذه اللقيات نخص بالذكر منها برج بورقيبة ورمادة والبرمة وجنين وكل هذه المراكز تقع جنوب الجمهورية التونسية . وعند الحديث عن حضارات الصحراء العتيقة لا بد من الاشارة الى مخلفاتها الفنية تلك الرسوم التي تحلت بها المغارات وضلوع الجبال في صحراء الجزائر (2) وصحراء الجماهيرية الليبية (3) بفزان أو بجبل

---

(1) E.F. Gautier, Le Sahara Algérien Paris 1923 ص : 130
H. Lothe, Nouvelle Statuettes en pierres polies découvertes au Sahara central et contribution aux cultes anciens des populations Sahariennes. Congrès panafricain de préhistoire, Actes de la II Session, Alger 1952, Paris 1954 ص : 725
J. Dubief, Découvertes préhistoriques et archéologiques dans le Sahara central. Travaux de l'Institut des Recherches Sahariennes t.IV 1947

(2) H. Lothe, A la Découverte des Fresques du Tassili, Paris Arthaud 1973.

(3) Pierre Beck, Général Paul Huard Tibesti, Carrefour de la Préhistoire Saharienne . Paris, Arthaud 1969

ونات فى عمق الصحراء الليبية وتمثل هذه الرسوم البديعة ألواحا من حياة الريف كما تمثل مشاهد لها صبغة حربية : فهذا قطيع من البقر يرعى تحت مراقبة رعاته وهذه معركة استخدمت فيها العربات والنبال وهى أسلحة هجومية كانت إذذاك عصرية وفتاكة (4) .

فبدون دخول فى التفاصيل التى نتركها لأهل الاختصاص والذكر فى هذا القطاع أردنا الاشارة الى ما كانت عليه الصحراء من ظروف مناخية وحضارية وعمرانية خلال العصور الحجرية . لقد كانت المساحات الصحراوية الشاسعة اليوم أراضى صالحة للزراعة وتربية الماشية بالامس : قطعان البقر لا يمكن تواجدها إلا فى أرض توفرت فيها المياه والاعشاب وطاب فيها العيش لبنى الانسان ـ وليس هذا الكلام اعتباطا ولا مجرد تخمين بل أساسه نتائج أسفرت عنها أبحاث المختصين فى هذا الحقل من الدراسات الانسانية : البقايا الحضارية تثبت تواجد الانسان وعظام الحيوانات فضلا عن الرسوم التى كنا أشرنا اليها تشهد بوجودها وتمكننا من تشخيصها ومعرفة سلالاتها. أما النسيج النباتى فيمكننا معرفته على ضوء المحفورات غبار الطلع المتكلس حيث أصبحت فى مقدرة المخابر المجهزة بأحدث التقنيات تحليل غبار الطلع المتكلس وتشخيص النباتات التى اليها ينتسب غبار الطلع ذلك فمن الطرائف التى كثيرا ما ترد فى الكتب الخاصة بحضارات العراق القديم انه وجد فى بعض القبور القديمة ما مكن من معرفة الزهور التى قدمت قربانا للميت عند دفنه ومهما يكن من أمر فثابت أن تحليل غبار الطلع المتكلس يلقى نورا ساطعا على الوضع النباتى وبالتالى على الظروف المناخية التى كانت سائدة آنذاك ثم انحسرت .

على أن تغييرا جذريا طرأ تدريجيا على الظروف المناخية وتمثل ذلك التغيير أو التحول التدريجى فى سيطرة الجفاف منذ العصر الحجرى الحديث وما انفك الجفاف يسيطر حتى بلغ درجة ضايقت الحياة البشرية فكانت الهجرة وترامت كثبان الرمال واسدل الستار على بقايا الحضارات الصحراوية ولم يكشف الغطاء الا عن القليل منها حتى يوم الناس هذا .

---

(4) P. Graziosi, L'arte rupeste della Libia, Florence 1942 .
Abbé H. Breuil, les roches peintes du Tassili n Ajjer, Congrès panafricain de Préhistoire, Actes de la II Session, Alger 1952 Paris 1954 ص : 65 ـ 219

خلت الصحراء تدريجيا حتى أصبحت قفر اليوم وذلك منذ أقدم العصور التاريخية كذلك عرفها القدامى ، فعندما يتحدث المؤرخ اليونانى هيرودوتوس عن الصحراء يقول : إنها « منطقة رمال ذات جفاف مريع » (5) ويشير المؤرخ نفسه الى منطقة رمال تترامى أطرافها من طيبة المصرية الى أعمدة هرقل .

لقد ورد ذكر الصحراء فى مؤلفات الكثير من القدامى منهم ثيوفراست Théophtraste واسترابو Strabon وديودور الصقلى Diodore de Sicile أشاروا جميعا الى صحراء مترامية الاطراف تسيطر عليها كثبان الرمال يتيمة من الاشجار لا حياة فيها باستثناء بعض الحيوانات كالغزال مثلا .

لكن الصحراء بحرها وجفافها لم تكن حاجزا بين شمال القارة وجنوبها بل بقيت ممرا يصل بينهما فلم تكن الصحراء عقبة فى وجه القوافل بل فى المصادر القديمة ما يثبت متانة العلاقات التجارية والحضارية بين افريقيا السمراء وأقطار المغرب الكبير . فيبدو أنه كان لقرطاج علاقات تجارية مع بعض الاقطار الافريقية من وراء الصحراء كالسودان والنيجر والتشاد . ومما قد يساعد على إثبات ذلك بعض الروايات التى تتعلق بالرحلات التى كان يقوم بها بعض القرطاجيين عبر الصحراء وجاء فى رواية أن أحدهم يدعى « ماجون » Magon كان يفخر بعبوره الصحراء دون مخافة العطش (6) : يعبر الصحراء ولا يتناول ماء : وردت هذه الرواية عن اليونانى أثينى : Athénée وهو من أحياء القرن الثالث بعد الميلاد وكان مشهورا بجمعه لطرائف الاحداث والروايات الواردة فى الكتب التى تسقط بين يديه .

هذه الرواية تبدو وكأنها صدى ضئيل للاتصالات البشرية والحضارية والاقتصادية التى كانت تربط العالم القرطاجى والبونيقى عامة بأقطار ما وراء الصحراء عبر الصحراء .

هناك قضية لا بد من إثارتها هنا وهى قضية الشهادات الأثرية . فهل يوجد فى الملف الخاص بتجارة القوافل بعض الوثائق الأثرية تعود الى العهد القرطاجى أى الى ما قبل الغزو الرومانى ؟ الواقع أن البحث فى هذا القطاع ما زال فى خطواته الاولى ويحق للباحثين أن يحيطوه بعنايتهم واهتمامهم ويسلطوا المزيد من الاضواء على هذه القضية التاريخية .

(5) هيرودوتس ، تاريخ II ، 33

(6) أثينى ، II ، 22

على ان بعض المنتوجات او المصنوعات البونيقية عثر عليها فى قبور الجرميين بفزان التى تم الكشف عنها وحفرها من قبل بعض الأثاريين الاطاليين (7) فهذه « البضاعة » البونيقية المتواجدة فى عالم الجرميين تثبت الصلة التى كانت تربط بين قرطاج والمصارف البونيقية من جهة والقبائل الجرمية من جهة أخرى واذا تذكرنا الدور التجارى والحضارى الذى كان يقوم به الجرميون والنساميون بين المغرب وأقطار ما وراء الصحراء كالسودان شعرنا بضرورة التعرف الى هذه القبائل الصحراوية .

• **الجرميون :** Les Garamantes

لقد قيل الكثير عن الجرميين ولعل أقدم النصوص التى تتعلق بهم هى التى نجدها فى السفر الرابع من تاريخ المؤرخ اليونانى هيرودوتس ويعود الى القرن الخامس قبل الميلاد . يقول هيرودوتس : « انطلاقا من أوجلة Augila وعلى مسافة عشرة أيام أخرى توجد هضبة من الملح وحولها مياه متوفرة وغابة نخيل مثمرة على غرار المحطات الاخرى . وهناك يقطن أناس يطلق عليهم اسم الجرميين يمثلون أقواما كبيرة العدد يحملون التراب ويضعونه على الملح ثم يزرعون . إن أقصر الطرقات تدفع الى آكلى اللوطس Lotophages ومن ثم الى ديارهم تمتد المسافة على ثلاثين يوما وفى ربوعهم توجد كذلك الابقار التى ترعى مدبرة . أما السبب فى ذلك فلأن لها قرونا منحدرة فتراها لا تستطيع الرعى مقبلة فان فعلت غاصت قرونها أمامها فى الارض . فلا فرق بينها وبين غيرها من البقر الا فى هذه الظاهرة وكذلك فيما تتميز به جلودها من حيث سمكها ومتانتها .

إن هؤلاء الجرميين يطاردون سكان المغارات من الأثيوبيين على متن عربات تجرها خيول أربعة ذلك أن الأثيوبيين سكان المغارات أسرع فى العدو من كل الأقوام التى ورد ذكرها فى بعض الروايات » (8) .

---

(7) B. Pace. S. Sergie G. Caputo, Scavi Sahariani in Monu dei Lincei XLI 1954
Sunday Ghibli — 26 — 1-1964 انظر كذلك
A Divita, Influences grecques et Traditions Orientales dans l'Art punique de Tripolitaine, — Mél. Ecole Franc. de Rome, 1968 P. 46

(8) هيرودوتس ، تاريخ ١٧ ، ١٨٣

يعتبر هذا النص للمؤرخ اليونانى هيرودوتس من أقدم النصوص المتعلقة بالجرميين ففيه اشارة الى وطنهم أو الديار التى كانوا يسكنونها وفيه اشارة الى اقتصادهم الذى كان يرتكز على الزراعة وتربية الماشية وكانوا يعيشون فى مناخ تغلب عليه ملامح الواحة وكانوا يقاومون الملوحة بجلب التربة الصالحة وكلما أصيبت أراضيهم بداء الملح غطوها بقشرة جديدة من تراب ينعم بالخصوبة . فما هى المزروعات التى كانوا يتعاطونها ؟ لم يذكر المؤرخ اليونانى سوى النخلة مثبتا انها من النوع الذى يثمر على أنه ليس من المجازفة افتراض وجود بعض الاشجار المثمرة التى يمكنها التعايش مع النخلة مستفيدة من ظلها ومن المياه التى ترويها وكذلك بعض الخضروات على غرار ما نجده عامة فى الواحات كواحة تقابس بالبلاد التونسية والتى عرفها القدماء بمزروعاتها المختلفة ذات الطوابق الثلاثة (9) .

والى جانب الزراعة وغراسة الاشجار المثمرة كان الجرميون يعيرون اهتماما لتربية المواشى ولا سيما الأبقار مستفيدين من لحومها وجلودها وطاقتها وكانوا يدافعون عن أوطانهم أو يهاجمون جيرانهم من الاثيوبيين سكان المغارات وكانت وسيلة التنقل عندهم العربة التى تجرها خيول أربعة . تلك بعض ملامح دنيا الجرميين كما تصورها هيرودوتس استنادا الى روايات أخذها عن بعض الذين تمكن من الاتصال بهم ممن كانوا يعرفون أخبار الجرميين . وتجدر الاشارة الى التطابق الملموس بين ما ورد فى النص اليونانى وبين بعض الرسوم والنحوت المكتشفة فى منطقة فزان والتى تعود الى العصور الحجرية . إن هذه المعلومات القيمة حول الجرميين تصور وضعا عله كان يسود القرن الخامس قبل الميلاد مع اعتبار انغماس جذوره ماض سحيق ومعنى ذلك أن الجرميين كانوا إذذاك مستقرين فى ربوع فزان وليسوا فيها بحديثى عهد . مع العلم أن هيرودوتس يعتبرهم من اللوبيين أى من سكان شمال القارة الاصليين أولائك الذين نطلق عليهم اليوم اسم البربر (10) .

لا يتسع المجال هنا لسرد كل النصوص القديمة التى تتعلق بالجرميين وهى كثيرة ومبعثرة فى مؤلفات عديدة ومختلفة من حيث هويتها ومن حيث محتواها

(9) ابلينوس الاكبر ، الطبيعة XVII ,22

(10) لقد قيل الكثير فى أصل البربر والراجح على ضوء أبحاث حديثة أن البربر ينتسبون الى الذين عمروا شمال افريقيا منذ أقدم العصور الحجرية أى الى انسان مشتى العربى وهو من سلالة قرومنيون « Cro- Magnon »

وزمنها نكتفي على سبيل المثال بالاشارة الى ما أورده إبلينوس الاكبر واسترابو وكلاهما من أحياء القرن الاول بعد الميلاد على أنني أومن جازما بضرورة جمع تلك النصوص جميعها وتصنيفها واستنطاقها حتى يتيسر التعرف الى واقع الجرميين على مختلف مظاهره العرقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحضارية بوجه عام .

وفضلا عن النصوص والشهادات المكتوبة يتوجب الرجوع الى المخلفات الجرمية أى الى الشهادات الأثرية من عمارة للأحياء أو للأموات وزخارف وتحف وأدوات مختلفة كما يتوجب تصنيف هذه الوثائق المادية من حيث الغرض ومن حيث الزمن حتى يتهيأ لنا تصور ثابت حول الجرميين له صفة الشمول والدينامية كذلك يتيسر التعرف الى مختلف أوجه الواقع الجرمي ومتابعة تطوره مع مر الزمن .

◆ **النساميون :** Les Nasamons

لا بد من جمع الوثائق المتوفرة حول هؤلاء النساميين وعلى غرار ما قلناه حول الجرميين فان أقدم النصوص المتوفرة حاليا في خصوص النساميين هي التى كتبها المؤرخ اليوناني هيرودوتس خلال القرن الخامس قبل الميلاد .

ففى حديثه حول منابع النيل أشار هيرودوتس الى حوار دار بين بعض القورينيين وملك الأمونيين أتايرخوس Etearchos ومضمونه أن بعض النساميين أقبلوا يوما على الملك أتايرخوس ويضيف هيرودوتس أن النساميين من الشعوب اللوبية يقطنون على ضفاف السرت وبالربوع الشرقية القليلة الامتداد . سألهم أتايرخوس هل لهم حول صحراء لوبيا أكثر معلومات مما لديه فأجابوا : إن عندهم بعض الشبان الطائشين وهم من أبناء كبار القوم فلما أدركوا سن الرجولة تصوروا لونا من ألوان الطيش وهو أن يعينوا عن طريق القرعة خمسة منهم يخرجون لرؤية صحارى لوبيا مع الحرص على تجاوز البقاع التى تمت معاينتها من ذى قبل ثم يأتى الحديث عن المغامرات التى عاشها الفريق النسامي حيث عبروا الصحراء حتى أدركوا ربوعا تنعم بالاشجار المثمرة والمياه الجارية فلما اقتربوا وارادوا قطف بعض الثمار هجم عليهم جمع من الناس قامة الواحد منهم قصيرة دون المعدل العادى فألقى القبض على الشبان النساميين وأخذوا الى مدينة عبر مستنقعات فسيحة ويشير النص الى أن سكان هذه المدينة من ذوى البشرة السمراء (II) .

(II) هيرودوتس ، تاريخ II ، 32

وفى فقرة أخرى من تاريخ هيرودوتس نجد معلومات ثمينة حول النساميين فيثبت أنهم قوم كثيرون وفى فصل الصيف يتركون حيواناتهم على شاطىء البحر وينطلقون نحو أوجلة لقطع عراجين التمر والمنطقة معروفة بوفرة النخيل فيها لما تجده هذه الاشجار من أسباب اليناعة . ويتعاطون صيد الجراد وبعد صيدها يعرضونها الى أشعة الشمس حتى تجف ثم يجعلونها سحيقا يتناولونه مع اللبن .

ومن تقاليدهم تعدد الزوجات على أنهم لا يعرفون الاستئثار بالمرأة ولو كانت زوجة فاذا ما أراد أحدهم الاتصال بامرأة غرس عصا أمام مكان الاتصال ويمارس معها العملية الجنسية . وعند زواج الرجل لاول مرة من العادة أن تمر العروس بين يدى كل المدعوين وتتصل بهم جنسيا ويقدم لها كل منهم الهدية التى أقبل بها من بيته (12) .

وفى فقرة ثالثة يشير هيرودوتس الى بعض التقاليد الدينية منها قضية التكهن أو التنبؤ فتراهم يقسمون بالذين يفوقون غيرهم بالصدق وحسن الخلق يقسمون بهم واضعين أيديهم على قبورهم . وعند اللجوء الى التنبؤ يزورون قبور أجدادهم وبعد الصلاة ينامون عليها . فان كانت لهم رؤية فى نومهم عملوا بمقتضاها . وعند المعاهدة ترى كلا من المتعاهدين يشرب من يد صاحبه واذا لم يتوفر الماء عوضاه بالتراب لحسا (13) .

تلك بعض المعلومات حول النساميين فهيرودوتس يعتبرهم من القبائل اللوبية التى تقطن قرب البحر على ضفاف السرت الاكبر أى بمنطقة برقة وعرفنا المؤرخ اليونانى على بعض أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية فيبدو أنهم كانوا من المخضرمين أى من أهل المدر وأهل الوبر فى نفس الوقت ولهم اقتصاد مخضرم كذلك حيث يستند الى الفلاحة فى الواحة وتربية الماشية فكانوا يتنقلون بين منطقة السرت وواحة أوجلة Augila وكانوا من الذين يفهمون لغة الصحراء ويعرفون مسالكها وأسرارها مما ييسر لهم القيام بدور الوسيط بين الاقطار المتوسطية وأقطار ما وراء الصحراء وفيما أورده هيرودوتس حول النساميين اشارات الى بعض المناطق التى كانوا يترددون عليها منها أوجلة ومنها مملكة الأمونيين بسيوة .

---

(12) هيرودوتس ، تاريخ 17 ، 172
(13) نفس المرجع

وتوجد بعض المعلومات الاخرى حول النساميين لكنها قليلة مع العلم أن الشهادات الأثرية غير متوفرة اليوم والأمل أن تتكثف الابحاث في هذا القطاع مما قد يسفر عن اكتشاف بعض المخلفات الحضارية النسامية مهما تواضعت من حيث كمها وكيفها ومهما يكن مستوى معرفتها للجرميين وللنساميين فثابت أنهم كانوا من بين الذين يجهزون القوافل للربط بين أقطار المغرب الكبير وأقطار ما وراء الصحراء فمنهم كانت السيارات الصحراوية وثابت أنه كان لقرطاج وللمدن البونيقية وللممالك النوميدية والموريتانية علاقات مع هذه القبائل الصحراوية وعن طريقها كان التبادل التجاري والثقافي وكذلك العرقي فكانت قوافلهم تأتي ببضاعة الى المصارف الساحلية أو يأتي تجار الاقطار المغربية الى المراكز الجرمية أو النسامية ويأخذون منها البضاعة المطلوبة والآتية من وراء الصحراء ويقدمون مقابلا لها بضاعة يستهلكها الجرميون والنساميون أو يصدرونها نحو الجنوب حيث قد يعسر على البونيقيين الوصول ولعل الجرميين والنساميين كانوا يتعاونون مع قبائل أخرى لم يحتفظ التاريخ بأسمائها وهكذا تتحول البضاعة من مرحلة الى أخرى عن طريق قوافل عديدة مما يقسم المسافات ويحد من شدة العقبات والصعوبات وليس من الغريب أن تكون الطرقات مقسمة الى مناطق نفوذ كل قطاع منها يخضع الى سيادة القبيلة التى تقطن أو تتحرك فى الربوع التى يمر منها هذا وذاك الجزء من طريق القوافل ، على أن هذه افتراضات لما تدرك مستوى القطع .

أما عن طرقات القوافل اذذاك فلقد قام بعض المؤرخين بمحاولات تستهدف ضبطها ورسم خريطتها : منها المحاولة التى قام بها المؤرخ الفرنسي ستيفان اقزال (14) Stéphane Gsell. خلال النصف الاول من هذا القرن ويرجع أن تلك المسالك كانت تنطلق من المصارف الساحلية : تقابس ـ تجغط أوه Oea ـ لبدة الكبرى ـ صبراطة ـ متجهة نحو الاسواق الصحراوية ومن أعظمها منذ عهد قرطاج غدامس وجرمة عاصمة الجرميين بمنطقة فزان اليوم . ويعتقد ستيفان اقزال ان الطريق تنطلق من المصارف الساحلية كلبدة الكبرى مثلا وتنعرج نحو الشرق حتى يكون التخلص من قسوة الحمادة الحمراء فتمر ببو نجم وسوكنة ثم تعبر الجبل الاسود .

---

(14) الجزء الأول ، ص : Stéphane Gsell. Hist. Anc. Afri. du Nord. 59

وكانت طريق أخرى شمالية جنوبية لكنها قاسية عبر الحمادة الحمراء وتمر بادرى ومنها الى جرمة ويرجح المؤرخ الفرنسي اشزال أن الطريق الاولى كانت أكثر استعمالا . وما دمنا نتحدث عن المسالك التجارية التى كانت متبعة قديما بين المصارف الساحلية والمناطق الصحراوية يمكن أن نشير الى الخريطة التى وضعها الدكتور محمد سليمان أيوب فى دراسة حول جرمة (15) . وهى من المحاولات التى أشرت اليها وأعتقد أن الأبحاث الجارية على الميدان ستساهم فى تسليط المزيد من الضوء على هذه القضية .

وفيما يتعلق بالوسائل المستخدمة لعبور الصحراء أعنى وسائل النقل فالظاهر أنهم كانوا يستخدمون الدواب كالحمار والحصان والثور مع العلم أنه لا ذكر للجمل عند الحديث عن التجارة الصحراوية قبل الغزو الرومانى : إن أقدم الوثائق المتعلقة بوجود الجمل فى الاقطار المغربية تعود الى القرن الاول قبل الميلاد والى زمن يوليوس قيصر بالتحديد : ورد فى الكتاب الذى ألفه أحد ضباط قيصر حول الحرب الافريقية أن الملك النوميدى يوبا الاول خسر من بين ما تكبده من خسائر قطيعا يعد اثنين وعشرين جملا (16) على أنه من الثابت أن الجمل كان متواجدا فى افريقيا الشمالية منذ أقدم العصور الحجرية وتتكاثف الشهادات حول الجمل واستعماله فى مختلف الميادين الاقتصادية والعسكرية طيلة العهد الرومانى شهادات أثرية (17) وشهادات أدبية (18) ومما قد يدعم نظرية عدم انتشار الجمل فى ربوعنا المغربية قبل العهد الرومانى ملاحظة لغوية ذلك أن بعض الاخصائيين فى اللهجات البربرية يقولون بعدم وجود اسم بربرى للجمل (19) كما لا وجود للجمل فى

---

(15) محمد سليمان أيوب ، جرمة طرابلس 1969 ، ص : 208

(16) قيصر ، حرب أفريقة ، 4, L XVIII

(17) Catalogue Musée Alaoui 139 n° 64
ص : 40 ، عدد 88 . انظر كذلك S. Gsell
الجزء الأول ، ص : 60 Hist-anc. Afric. du Nord.
وهناك وثائق أخرى عديدة قد يطول سردها

(18) Ammien Marcellin XXVIII, 6, 5
وهو من النصوص القديمة التى يذكر فيه الجمل باعتباره أداة نقل يستخدم فى التجارة الصحراوية .
Procope, Bell. Vand. I, 8, 23, II, 11, 17. Corippus, Johan. II, 92 IV, 597

(19) H. Basset, le nom du chameau chez les Berbères Rev. Afric. 1905, ص : 341

الزخارف الحجرية (20) . فالقضية مهمة وما زالت تتطلب المزيد من البحث والتنقيب من تفسير نصوص وعمل على جمع الشهادات الاثرية واستنطاقها بالاستناد الى الدراسات العديدة التى نشرت حول الجمل فى شمال افريقيا خلال العصور القديمة (21) .

ومما قد يتوجب التساؤل حوله قضية العربات التى تنسبها النصوص الى الجرميين فتقول انهم كانوا يلاحقون الاثيوبيين من سكان المغارات على متن عربات تجرها خيول أربعة فهل كان الجرميون يستخدمون هذه العربات لتجارتهم الصحراوية ؟ سؤال تعسر الاجابة عنه ؟ أما اذا عتبرنا ملامح الصحراء كما هى اليوم فيمكن الجواب بالنفى ومهما يكن من أمر فان قضية وسائل النقل والتنقل عبر الصحراء من القضايا التى لا بد من معالجتها اذا رمنا التعرف الى تجارة القوافل الصحراوية .

قضية أخرى جديرة بالاهتمام وتتعلق بالبضاعة الموردة والبضاعة المصدرة لقد كتب بعض المؤرخين فى هذا الموضوع لكنها افتراضات فى الغالب تعوزها الدعائم الموضوعية قيل : إن هذه القوافل الصحراوية تأتى الى أسواق المغرب الكبير ساحلية كانت أو داخلية مثقلة ببضاعة ثمينة من ذهب (22) (ذهب السودان) وحجارة كريمة (23) فضلا عما تنتجه أقطار ما وراء الصحراء من أخشاب وحيوانات غريبة ولعل القوافل كانت تأتى بالعبيد أما صادرات الاقطار المغربية وخاصة صادرات قرطاج والمدن البونيقية فكانت تتمثل فى

---

(20) إن الرسوم المعروفة حتى اليوم لا نجد عليها صورة الجمل .

(21) نذكر على سبيل المثال .. E. Demougeot, le chameau et l'Afrique du Nord. romaine, Ann. écon. Soc. et Ciu. 1960 I
ص : 211 ...

(22) هيرودوتس ، تاريخ ١٧ ، 196
J. Carcopino, le maroc antique Paris 1948 ص : 73 – 163
S. Gsell Hist-Anc. Afric. du Nord ص : 8
Jean Desange, Remarques Critiques sur l'hypothèse d'une importation de l'or dans le monde phénico-punique
أعمال المؤتمر الدولى الثانى لدراسة ثقافات غربى البحر الأبيض المتوسط ، الجزائر 1978 ، ص : 52 – 58

(23) الجزء الرابع ، ص : 139 S. Gsell. Hist. Anc. Afric du Nord

منتوجات فلاحية وأخرى صناعية منها الـزبيب والتيـن والخمـر والاسلحـة والمنسوجات ذات الالوان الزاهية والتمائم وغيرها من المجوهرات الزجاجية ولا شك أن للمكتشفات الأثرية وزن كبير فى ضبط هـذه البضـاعة التى كانت تعبر الصحراء فى اتجاه جنوبى أو فى اتجاه شمالى . فلا شـك أن البحث عن المدافن الجرمية أو النسامية ودراسة محتوى قبورها يفيد الدارس ويلقى نورا على بعض الزوايا التى ما زالت تغمرها الظلمة .

إنها قضايا عديدة وليست باليسيرة وما زالت تستوجب العنـاية وطـول النفس لكنه ثابت أن لقرطاج وللمدن البونيقية الاخرى علاقات متينة بأقطار ما وراء الصحراء مرورا بالمناطق الصحراوية وبالتعاون مع سكـان الصحـراء كالجرميين والنساميين ولعل الخصام الذى شب بين قرطاج ومدينة قورينة(24) كان نتيجة تنافس بين المدينتين فى خصوص مراقبة بعض الخطوط التجارية الصحراوية بالتسلط على بعض المراكز الاستراتيجية الضامنة لسلامة الحركة عبر الصحراء (25) .

محمد فنطر

---

(24) صلوستيوس — Salluste
حرب يوغرطة 10 — 1, LXXIX

(25) لقد تدخل الفراعنة ضد قورينة لوضع حد لتوسعها على حساب القبائل اللوبية وفى تدخـل مصـر إذذاك تعبيـر عن سيـاستها إزاء المنـاطق الصحراوية .

وهذه قصيدة أخرى رديئة جداً !

شعر : الصادق شرف
(أبو وجدان)

خانس أنت وراء احوالك الجوية الرديئة ، تخسف بنفسك – حتى فى رابعة الصحو الجميل – وراء كل رديء ، متوهماً ان ذلك هو النقد !! ولتغلق الرتاجات حتى ولو كانت شمس الصحو ، فلن تفتح للنور منافذ العبور للخير والجمال ، لانك أنت ، وكفى !!

1 – الى الصباح حتى مطلع الناقد :

تَنبَّـأَ النّقـادُ لي
بأنّني الغنيُّ في مُستقبَلِ العَطاءِ بالمؤشِّراتِ الفذّةِ الجَريئهْ .
لكنَّنـي يلـذّ لي .. يَلذُّلي ..
بأنْ أكذّبَ النّقادَ ، أنْ أخُطَّ دائما قَصيدة كهذهِ رَديئَهْ ..
مَتَى تُرى قدْ صدَقَ النّقادُ !؟ كاذبونَ دائما ..
إنِ ادّعَوْا بأنهم قد وَصَلوا الى الحقيقةِ المُضيئَهْ .
نقادُنا منجّمُونَ ، الصدقُ عندَهمْ أكاذيبْ ..
وهذهِ حقيقةٌ وإنْ تكنْ مُسيئَهْ .
شتّانَ بينَ شمعةٍ ما احترقتْ إلاّ لِكَيْ تُضيءَ بيتَ غيرِها !!
وتنشرَ الظلامَ في غُرفتِها !!

غرفتُها بِهِم غيرها مليئة ، مليئة ، مليئة !!
شتّانَ بينَ شمعةٍ يَنْهَبُها اللهيبُ ! والحباحِبِ التي
تُضيءُ / فالظلامُ لنْ تُضيئَهْ !

* * *

أحبّتي النقادَ ، منْ قال بأنّني كرهتُكُمْ ؟ متى !؟
فالكُرهُ عندي حبُّكُمْ ..
وحبُّكم قدْ صارَ عندي سيدَ الخطيئَهْ
شتّانَ بينَ ناقدٍ (مُؤَسّسٍ) .! وبينَ مَنْ ..
(ينْتَقِدُ) انطلاقة شريفة في بيئةِ الثقافةِ الوَبيئَهْ
على موائدي يعيشُ الناقدُ المأجُورْ ..
فغلّتني يأكلُها ، ويتْنَني يشتمُها ..
مأكولةٌ مذمومةٌ ، مذمومةٌ بريئَهْ
النّقدُ عندَهُ معَ المزُايداتِ ، مائعٌ / اوحاقدٌ / أو خاضعٌ / الى وصولٍ
طامعٍ /
إلى علاقةٍ وَطيئَهْ ..
فـ(الدُنكِشُوتُ) قابع على كرسيِّه ، تَمتَصُّه سجارةٌ
مبلولةٌ ، تهرّأتْ شفاهُهُ الدنيئَهْ ..
يمتصها كعلقةٍ ، ما عُرفتْ لولا التصاقُها بمَنْ يدرّ منْ دمائهِ
على مصّها بلا مَشيئَهْ ..
على مشارفِ الحريقِ يَنْحَنيِ .. وَيَنْثَني يسجّلُ الأحداثَ ، هذا
حادثٌ مفْتعلٌ ، وحادثٌ مستَوْرَدٌ للبيئَهْ

النّقـدُ – مِنْ أمـراضِ بعضِ النـاقـدينَ – لم يـزلْ ..
تَهجُّمـا ، رَمْـيَ الغُصونِ المثْمراتِ
بالحِجـارةِ المُسيئَـــهْ .

* * *

2 ـ الى الليل حتى مطلع الشاعـر ..

يا شاعرا يُقاطِعُ القريحةَ التي تريدُ منهُ أنْ يَجيئَها / قاطَعَهَـا /
فـاقسمتْ بالليـلِ والمسـاءِ أنْ تَجيئَـــهْ ..
مُصيبَتِـي .!
أنّـي إذاَ هَـرَبْتُ من قَـريحَتِـي .!
لِحُجْـرة مُظْلِمـة / تَجيئُنِـي /
تقتحـمُ الظّـلامَ لي .! وَعَنْـوَة ! مُقسمَةً
باللهِ أنْ تُضيئَـــهْ !

مُشْكلتي عويصَةٌ ، ما حلّهـا تَطفُّلٌ ، يخَالُ شِعْـري حانة يدْخلُها ..
تدقُ كأسي كأسَهُ / وهذه فارغةٌ / وتلكَ عنـدي ..
لم تزلْ – ودائما – مليئة بِهَمّ غَمْرِهَا
مليئَـــهْ !

* * *

فلسْتُ يا أحبتّي النقـادَ مُرْغما على السّكوتِ! / مثلما أنا يُرغمُني ...
أجَلْ / نَعمْ / يرغمُني القصيدُ أنْ أقولَهُ .
فَلْتشهدُوا بأنّنـي البريءُ حينما تكونُ لي قصيدةٌ كهذه / كهذهِ رديئَـهْ .

فانْتقدُوا / فليسَ إلاّ أحرُفي بِقُيضٍ فِعْلا مضْجَعِي مَخَاضُها ..
أُنْجِبُها حتى ولو يَبيعُها النقادُ كالعبيدِ في سوقِ المزادِ العلَنيِّ بالنَّسيئَهْ .
أَنْسِجُها من الشرايين ، فإنْ تقطّعتْ فإنّني ألْحَمُها ..
من العروق النّابضات ، الضّاربات في مدى تجربتي وذاك لا يهمني .!
وانّما المهمّ عندي : أنْ أكونَ خالقَ القصيدة الصادقة الجريئَهْ .
الشعرُ عندي منْسَجٌ / ونولُهُ مواقفي / خيوطُهُ عواطفي / وفكرتي وشيعةٌ / وليسَ ذَنْبي
أنْ تَظَلّ سوقُ نقدِنا – أجَلْ – كاسدة / إنْ نَشطَتْ فضَجَّةٌ بَذيئَهْ .
النصرُ عندي أنْ أكونَ دائما مُحاصرًا مِنْ / الصّباحِ / للمَسَاءْ .
يَلَذُّ لي كَسْرُ الحصارِ في ثَباتٍ دائمٍ / وإنْ تكُنْ خُطايَ دائما بطيئَهْ .
لنْ يُبْدِعَ الانسانُ مُطلقَ الجمالِ ، إنما الابداعُ أنْ تكونَ لي ..
قصيدةٌ كهذهِ / كهذهِ رَديئَهْ .
وأبدعُ القصائدِ التّي تظلّ في خوالجي خَبيئَهْ ..
ما قلتُها ، ولنْ اقولهَا ، أليسَ حينمَا تُقالُ ، تنْتهِي البَريئَهْ !؟

(أبو وجدان)

79 – II – 15

الدوعاجي قصاصا

بقلم : المختار العبيدي

كنت كلما وقفت عند أثر أدبي سيما اذا كان قصة وجدتني أستنجد في أحيان كثيرة بعدد من الكتاب الغربيين أمثال بوريس فيان أو جلبار سسبرون لفهم قصة من أقاصيص سمير العيادي او عز الدين المدني ومن لف لفهما من كتاب القصة التجريبية .

لكن أجدني مع الدوعاجي ـ مع اعتبار الفارق الزمني الذي يفصل بينه وبين أولائك ـ في كل قصصه ازاء انتاج رائع ممتع لا غبار عليه ، غص الى اعماق واقعنا الانساني والتونسي في الآن نفسه . فكان له منحاه الخاص ومنهاجه المعلوم في الايجاز والوضوح . وقدم الينا في جل قصصه نفسيات تونسية من ذاك الوسط الذي عاش وتربى في أحضانه .

ولقد أدرك الدوعاجي أول ما ادرك ان المذهب الواقعي هو انسب المذاهب لتصوير ما يجري في الحياة وللتعبير عما تشعر به النفس من فرح وحزن ، أمل ويأس ، هناء وشقاء . فالتزم بالواقع ، وانتهج سمتا مستقيما هو سمت التعبير عن مشكلات بني وطنه ، واعتنق مفهوما محددا هو الايمان بالشخصية التونسية ، وسعى الى تحقيق غاية سامية هي تأكيد كل ما هو رائع وجميل في الانسان .

والقارىء لقصص الدوعاجي لا يكاد ينتهي من مطالعتها حتى يجد في نفسه حاجة الى اعادة قرائتها والوقوف عندها طويلا لا لكونها خارقة للعادة ـ تصور الذئاب تعوى في العراء ، والسدود تنهار بين العواصف والاعاصير ـ بل لكونها عادية تصور حياة الناس كما هي وبما فطروا عليه ، وعنصر الابداع في القصة انما يظهر في مثل هذه القصص ذات المواضيع العادية والتي توهم بأنها لا تحتاج الى درس ولا الى تحليل .

وقد يرى الكثير ممن يكلفون بالقصة كتابا وقراء أن فن الدوعاجي تغلب عليه الفلكلورية ولذلك فليس لفنه كبير قيمة ، لكن فات هؤلاء ، فى الحقيقة ، ان الدوعاجي وان استمد أقاصيصه من الواقع ، فان هذا الواقع ، لم يستبد به، وانما هو « الواقع أعيد خلقه من جديد فى صورة إلا تكن أصدق من الواقع الصرف فهى أبلغ منه وأدل » (1) .

وهاك عينات من قصص الدوعاجي تكون دليلا على ما نقول :

خلّد لنا الدوعاجي فى قصة « موت العم باخير » (2) جوا من أجواء الحياة اليومية عرفناه ونحن صغار نلهو بين الشوارع والازقة وقد أشرف هذا الجو اليوم على التلاشى للتقدم الكبير الحتمى . فتنفر نفوسنا من ربقة الحاضر لتعيش لحظات فى كنف تلك الاجواء المحببة الينا .

هى قصة رجل بسيط سقاء يقطع كامل يومه جيئة وذهابا بين « السبالة » والمنازل حتى اذا أظلم عليه الليل رأيته راجعا الى مخزنه والبشر والسرور باديان على وجهه ليبيت فيه ليلته .

وليس العم باخير بغريب عن أطفال الحى الصغار فهو جد الجميع يحبونه ويمشون من ورائه حتى اذا دخل مخزنه رأيتهم ينظرون اليه من بين ثلمات الباب ويسترقون السمع لينصتوا الى أحاديثه وتمتماته الليلية . وهو كذلك محبوب من طرف كبار الحى ، يدخل بيوتاتهم متى شاء وبدون استئذان . فيتحدث مع ربات المنازل حديثا خالصا ملؤه الانس فتفهم ان هذا المسكين له من يؤانسه فى الحياة وله من يستمع الى أحاديثه رغم تفاهتها كما له من يعينه على تنظيف ثيابه وقضاء بعض حوائجه . ويمضى العم باخير فى جادته التى رسمها له القدر حتى اذا ما أصابه توعك جسمى رأيت من تطيب نفسه لقبوله وعلاجه ببيته ، فيأخذه رجل من رجال الحى الى منزله ويوكل إلى بناته الابكار تمريضه فيعتنين به ويسهرن على راحته الى أن يموت .

---

(1) توفيق بكار : « الدوعاجي فنان الغلبة » « التجديد » السنة 2 عدد 1 نوفمبر 1962 .

(2) الاقاصيص التى سيقع التعرض اليها فى هذا المقال موجودة فى المجموعة « سهرت منه الليالى » للدوعاجي .

تلك هي قصة العم باخير كما رسمها لنا الدوعاجي ، تبدو عادية فنتساءل عن مأتى الابداع فيها . ان أبرز ما اختصت به هذه القصة هو عنصر التصوير. وليس هذا غريبا فالدوعاجي معروف بكلفه الشديد بالتصوير الكركاتوري لذلك تراه اذا قدم لك صورة شخص من شخوص قصصه وجدته يتفنن الى أبعد حدود التفنن فيرسم الملامح البارزة بخط عريض والدقيق منها بخط رهيف ولا أدل على ذلك من تصويره الخلقي للعم باخير :

« كان العم باخير خفيف الروح ، دميما دمامة عليها مسحة من جمال التناسب مما جعل دمامته مقبولة فالانف البارز المكور تعلوه عينان حمراوان تحتهما فم واسع ، له شفة سفلى متورمة متدلية في مستوى أفقي مع ذقنه وعلى الجميع لون من ألوان الاشراق » .

ذلك هو العم باخير بملامحه الغليظة والدقيقة ، ينبض تحت جلد الكلمات فترتسم صورته في ذهنك ويذكرك بصنف « القرباجية » عموما في جميع الاحياء الشعبية بالعاصمة وعندما يحدثك الدوعاجي عن صفاته الخلقية يجعلك تطمئن اليه وتحسن به الظن فيدخل بيتك في كل ساعة ويسلم على ربته ويطلب منها ما يحتاج :

« كان رجلا خيرا ، طيب القلب ، ورعا ، لم نعثر له على زلة قط » .

ولا يقف الدوعاجي عند هذا الحد من الوصف لكأني به يريد ان يخلد صورة صاحبه في أذهان القراء ليكون نموذجا بشريا صادقا من المجتمع التونسي فيحدثك عن هيئته وعن ثيابه التي يكدسها فوق جسمه تكديسا، فتراه ضخما بتلك الملابس التي لا طائل من ورائها الا ستر العورة :

« كان لا يملك صندوق ملابس بل كان يرتدي كل ما يشتريه فتراه مثلا معتما بعمامة بيضاء عليه « محرمة » حمراء يربط الجميع بخيط من وبر قاتم اللون ويرتدي في أوقات الراحة الجبة والبرنس والقشابية والبلوزة صيفا وشتاء » .

ولا تعجب ابدا اذا أخذ الدوعاجي بيدك من جديد ودخل بك بيتا من بيوتات الحي قبعت ربته في ركن ـ بحضور خالتها التي قدمت لزيارتها ـ وراحت

تحكي قصتها مع زوجها السكير الذى آلمها سلوكه وسهرت من أجله الليالى تعد له ما يحتاج من أطعمة وما تشتهيه بطن كل سكير من « مشلوش » وغيره استجابة لرغباته وحتى تسلم من سخطه وأذاه. ان زوجة كهذه ذاقت ما ذاقت من الاتعاب وقاست ما قاست من عذاب السهر تظن أنها اذا حدثتك عن زوجها ستحدثك ناهرة قلقة من وضعها تطلب الفراق كلفها ذلك ما كلفها . اعلم انك اذ افكرت كذلك فقد اسأت ظنا بها وفاتك أن هذه المرأة تكن لزوجها من العطف والحنان ما تمنعها التقاليد والعادات بأن تفوه به . فهى تطلب من خالتها ان تخفت من صوتها عندما احتد النقاش بينهما حتى لا ينزعج هذا الزوج السكير وينام فى هدوء تام لكأنه فلذة كبدها . ذاك ما سعى الدوعاجى الى ابرازه فى هذه القصة ، وهو لعمرى ركن نير فى المرأة لا ينضب . (3)

ويستأنف الدوعاجى بك الطواف وكأن نفسه فطرت على استكناه نفسيات البشر وكأنه لم يقل كلمته الاخيرة فى الانسان رجلا كان او امـرأة ، هـذا الانسان الذى اضطهدته الاقدار وحرمته ما تمتع به غيره هو رغم كل ذلك ركن نير يشع رغم الفقر ورغم الحرمان . فيقودك الدوعاجى اثر الطواف الى كتاب « الحومة » فاذا هو كتابك الذى قرأت فيه واذا المولدية التى كنـت ترددهـا وأنت صغير تسمعها من جديد فى نغمة جميلة عالية يصدح بها الاطفال فرحين مسرورين بقدوم العيد . ويقوم المؤدب ليفرق الريالات على الصغار . ثم هو يبتزها من بعضهم اذا تلكأ فى حفظ سورته . ويكون من سوء الحظ الطفـل ابراهيم الفقير من المتلكئين ، وتعلم زوجة المؤدب بصنع زوجها مع ابراهيـم فتبتئس بما فعل وتشفق لحال ابراهيم كما تشفق كل أم حنون على صبيهـا وتسعى الى ارضائه ، فتسرق الزوجة بعض الدراهم من مال زوجها وتقدمه الى هذا الصبى فيفرح وتعصد والدته العصيدة كما يعصد كل الناس . وتمضـى السنون حتى اذا توفيت هذه الزوجة وجدت من يقف على قبرها يردد البردة ولم ينس حسن صنيعها .

فترى الدوعاجى من جديد يصور لـك قلـب المـرأة الشديـد الحساسيـة وشفقتها التى أملت عليها ان تسرق ، فاستحبت السرقة على ان يحـرم فقير مما تمتع به غيره . وحبذا السرقة فى مثل هذه المواقف (4) .

---

(3) سهرت منه الليالى .
(4) أمن تذكر جيران بذى سلم .

تلك عينات من قصص الدوعاجي ومواقف توقفنا عندها لنرى المكانة التى تبوأها هذا الفن مع الدوعاجي ولا يغرنك وقوفنا عند ثلاث قصص فقط من قصصه على انها هى أجود وأحسن ما كتب ، فقصص الدوعاجي كلها زاخرة بمثل هذه المواضيع الانسانية طافحة بنبل المشاعر وصدق النيات ونير الخصال .

أما عن الاسلوب الذى كتب به الدوعاجي أقاصيصه فهو أسلوب واضح بعيد عن الاسفاف قليل التكرار والالحاح الثقيل ، بعيد كل البعد عن أسلوب من تقدمه من الكتاب الذين رصعوا قصصهم بالخطب والمواعظ لا لشىء الا ليعتبر القراء بها . ولما كانت قصص الدوعاجي فى أكثرها تعتمد الحادثة اساسا فقد كان السرد مرتبطا ببعضه ارتباطا متينا ، وليس هو بالسرد المتواصل الممل بل كان يتخلله الحوار . وكثيرا ما يكون هذا الحوار كاشفا عما تخفيه النفوس فكان عنصرا هاما من عناصر التحليل النفسانى فى قصص الدوعاجي . ولم يتورع الدوعاجي أبدا من أن يدخل فى الحوار العبارة العامية الحلوة ، فكان بذلك حواره خفيفا تعهده الآذان فتطرب اليه وتستسيغه .

فالاسلوب قد تطور مع الدوعاجي تطورا كبيرا وسريعا فى الآن نفسه ، ونظرته الى الاقاصيص التى كتبت قبل الثلاثينات تجعلنا ندرك الخطوة التى خطاها الاسلوب مع الدوعاجي . ولعلنا بعيدون عن الاسراف اذا قلنا ان تطور الاسلوب كان ثمرة اطلاعه على الآداب الغربية مترجمة وباللغة التى كتبت بها .

ذلك هو الدوعاجي واقف بذاته أمامك وقد استخلصته مما كتب من القصص . وقد تعاودك النخوة كلما وجدت متسعا من الوقت الى الكتابة عنه جاعلا فاتحة لمقالك متضمنة قول أحدهم : هو أبو القصة التونسية ولا منازع.

محمد المختار العبيدى

★ **الفصل الاول :**

الارخـبـيـل

رواية : يوسف رزوقه

الكلمـة هـي قـدر التعسـاء ..
أمـا السعـداء ، فـلا يجـدون وقتـا للكتـابة ..

بيرنداللـو

بخطى متئدة ، واثقة ، دخل سويلمى بيتا مهددا بالسقوط .. كانت الشمس فى غروبها حريقا دائريا تتراءى خلاله تضاريس زرقاء ، وكان الصمت ثقيلا يشيع روائح الموت ..

لحظات معدودات تتلاشى ويخرج سويلمى بخطى متئدة ، واثقة أيضا وفى يده سكين ملطخ حتى النصل بالدم ..

أطال التحديق الى الأفق ، والتفت الى البيت المتهالك فى الظل ، كانت حذوه ناقة تفرشخ ، وقط رمادى يموء مواء خافتا وبقرة عجفاء تنظـر الى سـويلمى نظرات مبهمة ...

ضغط سويلمى على مقبض السكين وعيناه الى الأفق .. تمتم بمـا يشبـه التعزيم ، عاود التلفت الى الوراء ، رأى فراغا هائـلا فمـلأه بأن أغمـد فيـه السكين ...

وبخطى متئدة ، واثقة دائما ، أخذ فى التوجه الى بعيد ...

★ ★ ★

قال جدى :

ـ حضارتكم كلها مباذل ،،، حضارتكم لا تساوى شيئا : عبودية ، كفر ،

نفاق ، أخلاق منحطة ، الخ ،،، الخ ،، والبعرة ــ بطبيعة الحال ــ تدل على البعير ..

ــ أضحكتني طريقته فى التعليق والتأكيد على التعليق .. كان يتحدث بيدين متشنجتين كمن يلقى خطابا سياسيا بحماسة فائقة ، وكان يضرب الارض بعكاز خشبى تهرأ واملاس من فرط الرحيل فى دائرة الزمن ...

ــ ولكن ، يا جدى الـ ...

زوى ما بين الحاجبين وشهر فى وجهى كفا معروقة ، مرتعشة تستنكر ، هل أنه يعرف مسبقا ما سأقول ؟..

فضلت الصمت فى تلك اللحظة على الأقل ...

تحسس بيديه المخشوشنتين جبته القمراية ، أخرج حقة صفراء ، فتحها باصبعين ، وأيضا باصبعين حشا كهفى أنفه نفة شخماء استفحلت لا محالة فى جدى ولما تزل ،،،.

توغلت فى أنفى رائحة حادة كأنها الدخان فى العينين ، عطست عطستين، فأغرورقت عيناى دموعا تنمل كالسم فى مجرى الدم ...

وضحك جدى حتى طالعتنى من فمه شبه المفتوح أسنان قديمة نخرة ، متدهورة ،، يتشعب بين فجواتها عويل الريح يوما بعد يوم ..

إثاقل جدى ناهضا ، يعتمد العكاز ، وارتكز باليد الاخرى على كتفى ريثما تتموضع قدماه فى البلغة ..

مشى خطوتين ..

واستدار نصف التفاتة :

ــ اذا سال عنى الحاج مفتاح بوفضل أعلمنى فورا ، إنى أشعر بالتعب ، وسأحاول أن أنام سويعة إن أمكن ...

* * *

رفعت البرادة الى فمى ،،، وشربت ليترا من الماء تقريبا ،، كانت الارض تتوهج شمسا يموت من قيظها الموت ،، وكانت قوافل السراب الموحش تتخطف قدام عينى ، فأستشعر غربة قاتلة تفتح فى رأسى حفلا غامضا من بكاء غامض ..

دجاجات تقوق ـ على نحو جنائزى ـ حذو الاصطبل ، وحمار ـ يبدو انه اشتم رائحة أتان ـ ينهق من بعيد ، وطيور تلجأ الى الخرائب والكوى المنسية فى البحث عن الظل وكلبتنا المسنة تلهث لهاثا متصلا ، تقتحم وحدتى وترقد عند قدمى ...

شعرت برغبة فى التدخين سرعان ما اضمحلت ... تحررت من ثيابى وبقيت فى تبان من النيلون ،، أضحكتنى هيئتى تلك ، تمددت على حصير بال وتخذت ذراعى مخدة ...

....

....

صمت × إغفاء = موت ← مدن عابرة تتشكل فى اللاوعى ، الخ ، الخ...

....

نملة مجنحة ، صفراء تخترق الحدود وتستقر داخل التبان.. تهوى بكلابتيها على ذكرى ، فجعتنى حتى خلتها عقربا لدغتنى .. نفذت فيها حكم الاعدام ومثلت بها أشنع تمثيل ، وندمت ، ندمت فيما بعد ، حتى لعنت نفسى : لقد أجرمت فعلا فى حق كائن استضعفته فى لحظة ضعف ...

* * *

أضجرنى الضجر . أخذت كنشا متوسط الحجم ، ورقاته صفراء كالتين ، وقرأت قصائد رديئة فى الحب والغزل كتبتها بأسلوب إنشائى ، ركيك .

ضحكت من وجهى المراهق وذكرياتى القديمة . فتركت الكنش جانبا وخرجت أتمشى فى ظل جدار يتداعى ..

السراب الموحش أيضا وأيضا وأيضا !،،

وأشجار الزيتون الثابتة ، كالجثث المتفسخة ، بخمائلها المغبرة . وهذا الموت المتنقل فى ألف شكل هنا وهناك ؟.

أكاد أصرخ : أن جننت .. فى رأسى حوافر خريفية لخيول مطهمة بالحرائق، وبئر مهجورة تتدفق بكاء ناسفا للاسس ، وشهيقا جهنميا ...

توقفت قليلا قبل أن أدخل الى بيتنا الخاوى . سمعت صوتا غليظا يهتف بجدى . التفت . كان الحاج مفتاح بوفضل واقفا كعسكرى فى حالة انضباط .

* * *

أوقدت لهما الكانون .. أحضرت الشاى ، السكر ، الماء ، الفحم . وخرجت ، تاركا جدى والحاج مفتاح فى حديث شهى كالشاى الذى سيشربان .

* * *

ارتبطت بالطريق ، وطفقت أمشى بخطى بطيئة ، وعرق لزج عطن يتفصد من مسام جسدى ، والقيظ يزرع فى أغوارى المدلهمة احساسا بأن شيئا أساسيا سيتهشم فى ذاتى ..

جلست فى زيتونة داكنة الظل . تبين لى أن يمامة تفر مذعورة من كوة فى بئر .

ركزت بصرى .. فاصطدمت نظراتى بأم الزين بنت الحاج مفتاح ..

الآن : تبدأ مأدبة الغرائز ..

الآن : يندفع النهر المكبل ويحطم الدائرة المصطنعة ..

توجهت اليها والعطش .. أحسست حريقا هائلا يستيقظ فى موطن حساس من جسدى ..

لعنت الشيطان ... لكن ، فى مثل هذا القيظ وفى مثل هذا الخلاء ، تنهار الأسوار ، ويختبل الحكماء ...

تملكنى وسواس قهرى . ومن أدرانى أنها لا تكمى نفس الرغبة ؟

لكن ، من أين سأبدأ ؟

ــ أم الزين ...

هذا الجسد المتدفق وهجا ونارا وألسنة من دخان يحدد هدفى ويثقف وحشيتى ..

تبادلنا تحية مفتعلة ، فيها من سوء النية ما فيها ،، فهمتنى فيما يبدو ... دخلت معها فى فذلكة مفتعلة أيضا وأوهمت نفسى أنى بذلك أكون قد حطمت حائطا رفعته القرية فى وجهينا ..

ظللت أورطها وهى تتخلص ... والغابة تشحذ فى أعماقى أعصابها وأنيابها وسكاكينها الظمأى الى الدم ..

ترددت ، ترددت ثم غصبا عنها ، ضممتها الى صدرى الملتهب ، وسحبتها معى بالعنف الى ظل الصبار وهى تلطمنى ، تلطمنى ، وتكاد تفتح فى وجهى طريقا دمويا ..

حاولت النفاذ الى مركز الجاذبية القائظ ، ولكنها صدتنى بالتحدى ، وكادت ترفع عقيرتها بالصراخ وتفضحنى ...

أخليت سبيلها مضطرا ... ولجأت الى الظل وفى حلقى : وهج الصحراء ورغوة الصابون ...

أخجلتنى فعلتى تلك ، فلعنت وجهى الخلفى . واعترفت أمام نفسى أنى ما زلت بشرا بدائيا لم أتحرر بعد ، من لبوس جدى وعكازه الغائص حتى الغياب ، فى المستنقع ...

* * *

وجهى يزراق ويتحول الى دخان ينعكس انعكاسا مكثفا على الرماد ..

امتصنى العطش وتكدست فى حلقى رواسب الملح ...

تسللت بخطى لص محاذر الى تربيعة الخال صالح اللجمى وسرقت دلاعة تزن خمسة كيلو ڤرام تقريبا ...

ابتعدت عن التربيعة زهاء الخمسين مترا ، ولجأت من جديد الى الظل ...

أمسكت الدلاعة بكلتا يدى ، وأهويت بها على جذع الزيتونة اليابس . كان جوفها أحمر كالجمر ، ومعسولا كالشهد ، وكان كلب « بافلوف » فى فمى يفرز لعابا تتهدم دونه أسوار الانتظار ...

* * *

إنى ارتويت الآن ، يمكننى الانطلاق إذن ... انعطفت مع ثنية رملية ، ملتوية ،، صدى ناقوس يتناهى الى مسمعى ، التفت ، كان السائس : خماس أبى فى سنوات الزمة والنية ،، يتصبب عرقا وهو يحاذى بغلته اللاهثة ويساعدها بكل ما أوتى من قوة ، للخروج بالعربة من مسافة الرمل ...

بادرته بالتحية وبدأت أدفع العربة من خلف الى أن تغوص قدماى ...

تجاوزنا الثنية الرملية بعسر ولهات ،، فأوقف السائس البغلة ـ العربة وتنفس الصعداء ..

مسح بكم قميصه المغبر طبقة العرق من على جبينه المحروق ، ثم أشعل سيڤارو « أرتى » ومنحنى سيڤارو وابتسامة مدعمة بكلام حلو ، لم يصطنعه ولا يصدر عادة الا من سلالة بشر طيب القلب ...

اتخذ حيز مؤخرة فى النصف الامامى من العربة ، وأشار على بأن أركب حذوه ..

نحى المظلة عن رأسه ومنحنيها بالحاح فرفضت بالحاح ، وشكرته شكرا جزيلا ...

فى قريتى : يساء الى البعض ، ويمر الزمن ونلاحظ أنهم طيبون ، طيبون ، طيبون .. والساسى واحد من هؤلاء .. استغله أبى استغلالا فاحشا ، ومر الزمن ، وظل الساسى بوجهه الاول : طيبا ، طيبا ، طيبا . يكن لنا الحب ولا أتصور الكراهية صادفته يوما ...

أقام الساسى منذ زمن بعيد بشمار ، وشمار برواية الاجداد ولى صالح (هكذا يقولون) ، يؤذى من يتحرش به . ويبارك كل من كان حسن النية ، والله أعلم ...

دعوت الساسى الى الغذاء معى ، فاعتذر لارتباطه بشغل هام ، لكنه تقبل منى نصيبا معينا من لحم الزردة طازجا (تبركا بالولى الصالح) ...

* * *

كانت أمى جالسة القرفصاء، تفرث كرش الكبش مع بعض النساء المقمطات ـ بالدخالل ـ السوداء وكانت أخواتى وبعض الفتيات يطبخن لحم الزردة ويخضن فى أحاديث شهية ومختلفة والتوتة تخيم أغصانها الملتفة ؛ عليهن ...

وتحت القبة ، اجتمع إخوتى وثلة من الاقارب والاحباب ، يعدون الشاى ويتحدثون فى كل شىء ، فى السياسة ، فى الفلاحة ، فى الاقتصاد ، فى الادب الشعبى، فى الموت ، فى الزواج، فى الجرائم، يتحدثون فى كل ما يخطر بالبال أولا يخطر .. يبدأ الواحد منهم بماوتسى تونغ و (كيف) تمكن برأسه الصغير من توحيد شعب كبير وينتهى الى الساسى كيف عضه كلب مسعور ولم يكلب ...

سلمت على الجميع بلا ضجة واقتبلنى الجميع بلا ضجة أيضا ، كنت فى الحقيقة متضايقا أكثر من اللزوم ، ترتسم على وجهى كآبة من نوع خاص.. ولم أكن بمستعد للدخول فى أى حديث ...

النظام التربوي الاسلامي وصلته بالعلم والتقنية

بقلم : البشير السالمي

ظهر الاسلام وفي ضمنه نظرة خاصة للعلم والعلماء والتعلم . فهل حدد هذه النظرة بوضع نظام تربوي مميز ؟ وهل نص على اصناف العلوم نصا مضبوطا ؟ ثم ما هو الاساس للنظام التربوي الاسلامي الحديث ؟

لقد اهتم الاسلام بادىء الامر بالعلوم الدينية ، لكنه سرعان ما شمل اهتمامه سائر اشكال العلم كالفلاحة والصيدلة والرياضيات ، الى غير ذلك . وقد اصبغ الاسلام على العلم نظرة مقدسة : « يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء » . (1)

وقال برهان الاسلام الزرنوجي : « العلم امر عظيم وهو افضل من الجهاد عند اكثر العلماء . » (2)

وفضل الاسلام العالم والعالمة على غيرهما ، وهو ما يفهم من الآية الكريمة : « هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون . » (3) وقد اكد الرسول الكريم هذه الافضلية بقوله « العلماء ورثة الانبياء » (4)

---

(1) الآية 267 من سورة البقرة

(2) انظر كتاب « التعليم برهان الاسلام الزرنوجي » « للدكتور سيد احمد عثمان » .

(3) الآية 9 من سورة الزمر .

(4) صحيح البخاري .

اما التعلم فقد امر به الاسلام امرا ، وهو ما يفهم من الآية الكريمة : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم انسان ما لم يعلم . » (5)

وفى السنة الثانية للهجرة (663) واثر غزوة بدر التى انتصر فيها المسلمون، كلف الرسول الكريم اسرى الحرب المتعلمين ان يقوم كل واحد منهم بتعليم عشرة من المسلمين والمسلمات مبادىء القراءة والكتابة . فكان التعليم فدية اولائك الاسرى عوضا عن الذهب والفضة والانعام التى لم يكن المسلمون فى غنى عنها ، وخاصة وهم فى حالة اقلاع اقتصادى وعمرانى .

وتبعا لهذه الصبغة التى صبغ بها الاسلام العلم والعلماء والتعليم اكتسى النظام الاسلامى للتربية لونا دينيا ، تاثرت به جل المؤسسات الاجتماعية والدينية مثل الاوقاف ، وزوايا الاولياء الصالحين ومقامات الصوفية ، والجوامع والكتاتيب .

وبسبب هذه النظرة التربوية الخاصة بالاسلام صارت العلاقة التى تربط المتعلم بالمعلم علاقة متميزة ، يحظى فيها المعلمون ـ مهما كان صنفهم ـ باحترام يصعب تصوره فى المجتمعات غير الاسلامية ، ولذا ليس غريبا ان يقول على بن ابى طالب (600 ـ 661 م) المعروف بابائه : « من علمنى حرفا فقد صيرنى عبدا له » ، وقد بقيت هذه العلاقة المتميزة بين المعلم والمتعلم الى يومنا هذا ، وهى واضحة فى قول : أحمد شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم ان يكون رسولا

ومما يعتبر من صميم النظام التربوى فى الاسلام هو اعتبار العلم مرحلة يؤدى فى النهاية الى معرفة الواحد الاحد وجوهره الاعلى الذى هو جوهر كل علم .

(انما يخشى الله من عباده العلماء) (6)

ولذا كان العلماء المسلمون يدمجون علوم الحضارات الاخرى فى نطاق تصنيف الاسلام للعلوم ، وقد تصدى لهذا العمل كثيرون ، نجد من بينهم ابن سينا (980 ـ 1037) وعبد الرحمان ابن خلدون (1332 ـ 1406)

هذا نموذج العلوم وفروعها ، كانت تعتمده الى عهد قريب بعض مؤسسات التعليم فى العالم الاسلامى

(5) الآيات 1 ، 2 ، 3 من سورة العلق .
(6) الآية 28 من سورة فاطر

- علوم اللغة وفروعها
  - العناصر المشتركة بين اللغات
  - كالنحو والصرف
  - والاملاء والمحفوظات
  - والعروض
- المنطق وفروعه
  - المقولات
  - باری ارمینیاس
  - التحليلات النابعة
  - مباحث المنطق
  - السفسطة
  - البيان
  - الشعر
- العلوم الرياضية
  - علم العدد
  - الهندسة
  - علم البصريات
  - الفلك
  - الموسيقى
  - علم الاثقال
  - علم الحيل

- علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة
  - العلوم الطبيعية
    - مبادىء الطبعيات
    - الاجسام البسيطة
    - الكون والفساد
    - الاعراض الخاصة بالعناصر
    - المعادن النبات الحيوان
  - علوم ما وراء الطبيعة
    - علم الوجود
    - اصول العلوم
    - الاجسام غير المادية
- علوم المجتمع وفروعها
  - الفقه والتوحيد

الا ان هذا التصنيف للعلوم لم يكن الوحيد المعمول به ، فقد كان للفارابي (ت 950) تصنيفه ولنصر الدين الطوسي (1200 – 1273) تصنيفه . لكن القاسم المشترك الذي كان يجمع بين تصانيف مختلف العلماء المسلمين هو كون الانسان يستطيع الحصول على المعرفة من خلال سبيلين اثنين : الحقيقة الموحى بها ، التي تنقل بعد الوحي من جيل الى جيل ، وسميت بالعلوم النقلية، والعلوم على مستوى الادراك والعقل ، وسميت بالعلوم العقلية .

فعندما نشطت حركة الترجمة ، وانتقلت الى العالم الاسلامي علوم اخرى جديدة ، اقبل عليها العلماء المسلمون يقيمونها ويصنفونها واضعين نصب اعينهم **مسالة التوفيق بين العقل والوحي** او بالاحرى بين العلم والدين ، وقد برز ابو يوسف يعقوب الكندي (796 – 873 م) في بغداد وفي عهد المامون ، وبسط في كتابه « اقسام العلوم » « النظام التربوي الاسلامي » الذي يرتضيه في ميدان الرياضيات والمنطق والطبيعيات والفلك والموسيقى والفلسفة ، وقد كان متضلعا فيها جميعا ثم ظهر أبو نصر محمد الفارابي المذكور سابقا ، وطور ما كان شرع فيه ابو يوسف وبلور ما ورد في كتاب اقسام العلوم ، وزاده من التفصيل ما اثر به في مناهج الدراسات الجامعية الاسلامية ، وحتى جامعات الغرب ، عندما تكونت فيما بعد .

وهكذا سادت نزعة التوفيق في طلب العلم وتلقينه كلا من الشرق والغرب ، الى ان ضربت اطنابها النظريات المادية في أوربا ، كالفلسفة الوضعية (7) Positivisme والمادية الجدلية Matérialisme Dialectique (8) وخلاصتها ما نعلمه . « من ان العلم لا يعدو ان يكون حشدا من الذرات

---

(7) الوضعية أو (الايجابية) وهي نظرية معرفية جاء بها المفكر الفرنسي أوقيست كونت ، وهي قبل كل شيء موقف معاد لكل الابحاث الماورائية التي يعتبرها الايجابيون عديمة الفائدة وامارة تأخر في الذهن .
والايجابية هي الرجوع في المعرفة الى القوانين في العلاقات بين الظواهر وتقديم التجربة على التخمين والتفلسف . انظر « المفاهيم والالفاظ للفلسفة الحديثة » . يوسف الصديق – تونس .

(8) انظر « تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوربا » ص 118 لبوخنسكي
La philosophie contemporaine en Europe
I. M Bouchenki

المتشابكة . او جهازا آليا يمكن التصرف فيه وتسييره انطلاقا من العقل ، ومن العقل وحده . » (9) وانفصلت الدولة عن الكنيسة واصبحت العلمانية **Laïcité** دليل رجل السياسة والقانون والاقتصاد وحتى التربية ، وتأثرت كثير من الشعوب الاسلامية التى تعرضت للاستعمار الاوربى ، بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، ولحق النظام التربوى الاسلامى شيء غير قليل من الاختلال. وكنتيجة حتمية للتاثر بالتقدم العلمي والتقني للغرب ، بادرت مؤسسات التعليم التقليدية فى افريقيا وآسيا وغيرهما الى القيام بتحوير وتجديد فى برامج تعليمها : (تعليم جامع الزيتونة ، تعليم جامع الازهر ، تعليم جامع القرويين ، تعليم جامع الاخضر ، تعليم مدرسة قم ، تعليم مدرسة مشهد ، تعليم مدرسة اصفهان ، تعليم مدرسة النجف ، تعليم مدرسة لكنو ،) وتكون بذلك قد حذت حذو المدارس الرسمية التى تكفيها وتشرف عليها ، بشكل او باخر ادارة غربية . فهل تم من خلال تغير وتجدد التعليم الرسمى والتقليدى تصور جديد للنظام التربوى الاسلامى ؟

فعلا ، لقد تم فى هذه الظروف تصور جديد للنظام التربوى الاسلامى ويجسمه تياران :

1 ـ تيار علمانى لا يخلو من التطرف ، ونجده عند طه حسين (1889 ـ 1973) الذى رسم خطة عامة للتربية فى كتابيه : « مستقبل الثقافة فى مصر،

---

(9) المادية الجدلية Matérialisme Dialectique نظرية معرفية تأسست بابحاث ماركس وانقلز ، وترى هذه النظرية ان العالم والتاريخ ينصهران فى حركة المادة ، ويتطوران باعتبار تطور هذه الحركة .

وتزعم هذه النظرية بان تطور تاريخ الانسان ليس الا ذلك التطور المتميز الظاهر علميا ، لعلاقات الانتاج وطبيعة هذا الانتاج ، وهذه العلاقات وهذه الطبيعة يغلب عليها طابع التضارب والصراع ، بين من يمتلكون وسائل او موارد الانتاج وبين من يوصلونه بعملهم الى حيز الواقع .

انظر « المفاهيم والالفاظ للفلسفة الحديثة » يوسف الصديق ـ تونس

و « مرآة الضمير الحديث » ، تعتمد على العقل والتجربة العلمية لا غير . وهكذا نفى طه حسين فى بحوثه وجود الشعر العربى الجاهلى ، وقال ببشرية القرآن ، وسار فى نفس التيار سلامة موسى (1880 ـ 1959) الذى دعا فى مقالاته الى تبنى الحروف اللاتينية ، عوضا عن حروف القرآن ، وتحويل المساجد الى نواد للبراعة اليدوية كما جسم هذا التيار العلمانى القرار السياسى الذى اتخذه مصطفى كمال باشا (1881 ـ 1958) سنة 1923 غداة اطاحته بالخلافة العثمانية ، وتغييره لبرنامج التعليم الرسمى شكلا ومضمونا .

2 ـ تيار مصلح معتدل ، ونجده عند محمود قبادو (ت 1888) وخير الدين (ت 1889) أولا ، ثم عند محمد الطاهر بن عاشور (1879 ـ 1973) والبشير صفر (ت 1917) من تونس والامير عبد القادر (1807 ـ 1883) وعبد الحميد بن باديس (1801 ـ 1883) من الجزائر ، ورفاعة الطهطاوى (1801 ـ 1873) من الشرق ومحمد اقبال (1873 ـ 1938) من آسيا .

فقد حرص كل من خير الدين ومحمود قبادو على اختلافهما فى التكوين العلمى ، على تغيير اساليب التربية فى العالم الاسلامى وفى تونس بالخصوص ، ودعوا حسب تصورهما لوظيفة التربية الى حتمية تركيز التعليم على التقنية وتمكين المسلم من التكوين اليدوى الصحيح ، والسيطرة على الآلة والطبيعة ، وذلك كشرط لازم للخروج من التخلف الحضارى ، واسترجاع اسباب القوة ، وقد جهرا بهذه الدعوة فى المدرسة الحربية بباردو ، وبالمعهد الصادقى ، وبحلقات جامع الزيتونة . ولم يتردد محمود قبادو رغم اشتغاله بالتدريس والافتاء وما يفرضان عليه من ناموس ووقار من ان يصوغ هذه الدعوة الاصلاحية فى التربية ولو عدها بعضهم بدعة من البدع ، فى شعر تعليمى ، تسهيلا لنشرها ورواجها .

ومن لم يجس خبرا أروبا وملكها
ولم يتغلغل فى المصانع فهمه

فذلك فى كنه البلاهة داجن
وفى مضجع العادات يلهيه حلمه

هم غرسوا دوح التمدن فرعه الر
ياضى والعلم الطبيعى جذمه

هم قتلوا دنيا الحياتين خبرة
فمن لم يساهمهم فقد طاش سهمه

وقد اعترف محمد الخضر حسين (1874 – 1958) بجرأة محمود قبادو فى إصلاح اساليب التعليم بقوله : « ان اول شعر ظهر فى تونس يدعو الى مجاراة الغربيين في العلوم والصنائع والفنون واصلاح التعليم على هذا الاساس هو شعر الاستاذ والمفتى محمود قبادو . » (10)

ثم واصل خريجو الصادقية والزيتونة دعوتهم الى هذا الاتجاه ، فقد حرص الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الذى كا نيدرس بالصادقية ويدرس بالزيتونة على رسم خطة تربوية تقى الشباب الاسلامى بتونس ما كان يتهدده من انقسام وتنافر ، وتضمن وحدته القومية والثقافية ، وتمكنه من تحقيق طموحه فى التحصيل على العلم .

وقد جسم هذه الدعوة الاصلاحية كتاب الشيخ « اليس الصبح بقريب » الذى قال عنه الاستاذ المنصف الشنوفى فى مقدمته : « .... والكتاب جرىء... متين الصلة فى روحه ، وفى الاصلاحات التى يدعو اليها . »

وقد تسرب هذا التيار نفسه الى الجزائر عن طريق الطيب العقبى والبشير الابراهيمى والعربى التبسى وخاصة الشيخ عبد الحميد بن باديس الـذيـن درسوا بتونس ومصر ، قبل ان يعودوا فى اوائل هذا القـرن الى الجـزائـر ليكونوا جمعية العلماء المسلمين ، وينادوا بضرورة اصلاح التعليم على اساس ان لا نهضة للامةالاسلامية بدون نهضته،وقد بدأ عبد الحميد بنباديس بتطبيق هذا الشعار على برنامج التعليم الذى كان يتبعه تلامذة جامع الاخضر بقسنطينة وبنشر وجهة نظره فى شؤون التربية ، وما ينبغى ان تشمله فى تعليم العلوم الجديدة ، والتمكن من التقنية الحديثة . فى مجلة « الشهاب » (11)

الا ان الذى وضع استراتيجية تربوية مفصلة ، فيها تصنيف وتقييم للعلوم ويعد عمله المرحلة الثانية فى نظرية التربية فى العالم الاسلامى بعد الفارابى والطوسى وابن خلدون هو الشيخ رفاعة الطهطاوى من مصر ، والذى يميزه فى هذا التيار التربوى الثانى هو ان تصوره للنظام التربوى الاسلامى الجديد لا ينبغى ان يبنى على النزعة السلفية من توفيق بين علوم النقل والعقل ، بل ينبغى ان يبنى على اقتباس الوسائل العلمية المدنة للامة ، بقطع النظر عن اختلاف المعتقد الدينى بينها وبين الامة او الامم التى تقتبس عنهم ، ولذا يقول فى هذا الصدد : « ان البلاد الاسلامية برعت فى العلوم الشرعية ... واهملت

---

(10) انظر كتاب « تونس وجامع الزيتونة » تحقيق على الرضا – دمشق 1971
(11) انظر « الثقافة » عدد 38 – مايو 1977 – الجزائر .

العلوم الحكمية فجهلتها ، لذلك احتاجت الى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه » . (12)

ولعله يلمح بلفظة « جهلتها » الى تخلى المسلمين فى بعض الفترات عن انواع من العلوم العقلية لتزمتهم ، فنتج عن ذلك ضعفهم ، وتفوق غيرهم عليهم ، ولعله يذكرنا ضمنيا بمناهضة الخليفة العاشر « المتوكل على الله » للمعتزلة ولفئة من العلماء وحرقه لكتبهم . وتعرض مؤلفات ابن حزم لنفس المصير على ايدى حكام الاندلس ، وغير ذلك مما جرى من بعد ، فى عصور الانحطاط الاسلامى . بل لعله يشير الى تلك الفتنة التى تعرض لها جمال الدين الافغانى عند وجوده بتركيا ، وبمناسبة القائه محاضرة فى فوائد الصناعة وضرورة ادراجها فى صلب التعليم ، التى كان من نتائجها ان وقف ضده شيخ الاسلام افندى فهمى واتهمه بالزندقة والكفر ، والب عليه العامة ولم يحمه لا السلطان، ولا رئيس الوزراء اذذاك . فغادر البلاد كالفار بجلده فى شهر مارس سنة 1870 . (13)

ولذا كانت دعوة رفاعة الطهطاوى الى تجديد التعليم وربطه بالتقنية ربطا وثيقا دعوة صارمة ، لم يكتف فيها بالخطبة البليغة او القصيدة الشعرية ، او المحاضرة المثيرة ، وانما الف فى هذا الغرض كتابين اثنين اولهما « المرشد الامين للبنات والبنين » وثانيهما « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » . وكرسهما لقضية التربية والتعليم فى مصر بل فى العالم العربى والاسلامى وابرز اهمية التعجيل بتعليم التقنية للشباب الاسلامى ، واقتباس الوسائل العلمية المدنة للامة بقطع النظر عن اختلاف المعتقد الدينى بينهـا وبين الامة التى تقتبس عنها .

ولذا نجده لا يتردد فى التعبير عن اعجابه وانبهاره بمدرسة البوليتكنيك بفرنسا Ecole Polytechnique وكانه يدعو ضمنيا الى تبنيها والنسج على منوالها : « ومن اشهر المدارس مدرسة بوليتقنيقا » بضـم الباء وكسـر اللام .... يعنى مدرسة كليات العلوم وفيها تدرس الرياضيات والطبيعيات لتربية مهندسين فى علم الجغرافيا يهندسون القناطر والارصفة والجسـور

(12) انظر « الثقافة » تلخيص الابريز فى تلخيص باريس ص 16 ـ ج 2

(13) انظر « دور الافغانى فى يقظة الشرق ونهضة المسلمين » لاحمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعلى ـ مجلة الثقافة ـ الجزائر ـ عدد 38 ـ ماى 1977 ـ ص 83 .

والخلجان ، وكل آلات الحيل ورفع الاثقال واما مهنوسو العلوم العسكرية فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ... وارباب هذه المدرسة محققون لهم باع في سائر العلوم ، ويكفى في فضل الانسان ان يكون من تلاميذها . » (14)

وهكذا نلاحظ ان القاسم المشترك بين اعلام التيار التربوى الثانى امثال محمود قبادو التونسى وجمال الدين الافغانى الهندى ورفاعة الطهطاوى المصرى هو التركيز على تعليم التقنية واحياء الصناعات وكشف المخترعات والسيطرة على الطبيعة واستغلال مواردها . الا ان الطهطاوى كان يلح على ملاءمة التربية والتعليم لاحوال الامة . ويقول في هذا الصدد :

« لا بد ان تكون تربية الاولاد بحسب موافقة احوال الامة وطريقة ادارتها وأحكامها لينتقش في افئدة الصبيان الاساسيات والاصول الحسنة الجارية في اوطانهم . فمثلا اذا كانت طبيعة البلد المولود فيه الانسان عسكرية مائلة الى الحرب والضرب ، تكون تربية الذكور تابعة لذلك .... واذا كان البلد زراعيا أو تجاريا وما أشبه ذلك ، كان مدار التربية الصحيحة للاولاد مبنيا على ذلك . » (15)

وهكذا يكون الطهطاوى قد نبه منذ قرن تقريبا الى اهمية التوجيه والتوظيف في النظام التربوى .

اما محمد اقبال الذى عاش مأساة الحرب العالمية الاولى وما نتج عنها من قتل لعشرة ملايين وجرح لعشرين مليونا ، من البشر ، وتزييف الكثير من الحدود بين البلدان ، والذى لمح تباشير الحرب العالمية الثانية ، والذى راى الوجه السيء لـ « حضارة المعادن والتقنية » والذى امكن له ان يرى التناقص بين الايديولوجيات الغربية التى عوضت الدين ، فكارل ماركس Karl Marx يؤله البروليتاريا ، وسيقموند فرايد SIGMUND Freud يؤله غريزتى الجنس والعدوان ، ويعتبر الرجل مجرد طفل في ثياب رجل ، وفريديريك نيتشة Friedrich Nieztche يؤله الانسان المتفوق SUPERMAN هذا الرجل المصلح الذى يتخلص من كل مركبات المغلوب ، ويعلن عن تمسكه بنزعة التوفيق بين العلم والدين ، يقول « وليس الخلاص اليوم لامة الاسلام في تقليد الغرب ، فالغربى بمذهبه المادى سخر الطبيعة ، وسيطر عليها ، ولكنه ادرك من الحقيقة نوعا منها فقط ، ولذا هو شقى قلق مضطرب ، وانما

(14) انظر تخليص الابريز في تلخيص باريس ــ ص 142
(15) «المرشد الامين للبنات والبنين» ــ ص 239 ج 1

المسلم مطالب ان يفهم الاسلام فهما صحيحا يعيد اليه السيطرة على الواقع والطبيعة ويبعد عنه فى الوقت نفسه جفاف حياة الغربى وقلقه النفسى فيها ، ويجعله اكثر الماما بالحقيقة العلمية . » (16)

ويلتقى اليوم المربون التونسيون بمحمد اقبال فى تصور للنظام التربوى الاسلامى الجديد يكاد يكون واحدا ، حيث يقول البشير بن سلامة « ونحن فى تونس قد آمنا بان الانسان اداتنا وغايتنا فى آن واحد ، لابد لنا ان نتدبر امرنا لننحت التونسى ونربيه على هدى المبادىء الاسلامية الخالصة المصقولة بوهج العصر ، المتماشية مع أسمى القيم الانسانية والمتقدمة على ركب الرقى البشرى من دون تعصب او نكوص على الاعقاب . وان ثقتنا فى الاتجاه القويم الذى اقرته الحكومة التونسية بالنسبة لبرامج التربية القومية واوكلت تطبيقه الى **الاستاذ محمد مزالى** المؤمن المنادى به ليوازيه عزمنا جميعا على التفكير الجدى فى المحتوى الذى يجب ان نحدده بالنسبة لروح برامج التعليم وتفاصيلها حتى لا نحيد عن رسالتنا الحقيقية وهى تكوين التونسى تكوينا عصريا لا يخرج عن حضارتنا العربية الاسلامية ، ودينينا الحنيف ولغتنا الفصحى ، ولا اخال الا عزم المسلمين صحيحا . » (17)

ويتأكد هذا الاتجاه التربوى مرة اخرى ، وعلى صعيد العالم العربى الاسلامى، فى مؤتمر وزراء التربية العرب ، الذى انعقد سنة 1978 بمدينة الخرطوم، تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، حيث ختم اعماله بتقرير ضخم وصفه الاستاذ السعودى حسن محمد الدجيلى بانه وثيقة فلسفية مهمة تحدد الاستراتيجية التربوية المنشودة ، ومما جاء فى العنصر الاول لهذا التقرير ما يلى :

« ومن حيث ان الاسلام قد نظم حياة الانسان والمجتمع احسن تنظيم فلا بد والحالة هذه أن تستلهم التربية العربية أصوله ومبادئه لتطوير المجتمع العربى وتجديده (18) » .

البشير السالمى

---

(16) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، — ص 436 — للدكتور محمد البهى .

(17) مجلة الفكر عدد 4 سنة 1977

(18) (انظر مجلة « الفيصل » اكتوبر 1979 — ص 73 السعودية) .

(*) نشير على القارىء الكريم أن يتنبه الى ما استنبطه خير الدين من تعصير للتعليم عندما أسس المدرسة الصادقية وما نادت به جماعة الشباب التونسى فى أوائل القرن من ضرورة التمسك بالأصالة مع الأخذ بوسائل العصر (الفكر) .

سفينة الحكمة

شعر : عبدالله الزناد

نفـع النـاس

وخيرُكم خيرُكم في الناسِ منزلة من كان للناسِ نفّاعا بلا مِنَنِ
فانما الناس أتباعٌ لذي مَنَنٍ، وإنما المرءُ بالإحسانِ والمنَنِ

* * *

مكارم الاخلاق

المرءُ في سعةٍ بالرزق يكسبُه بالصدقِ والحقِ والاخلاقِ والكرمِ
والمرءُ إن كرمت اخلاقُه فلهُ في الناسِ منزلةٌ تمتازُ بالنّعمِ

* * *

معاشرة الاخوان

إذا أنتَ لم تنفعْ فما أنتَ تُرتجى وعيشك بين الناسِ زورٌ وبهتانْ
وما المرءُ في الاخوان الا لكونه لدى الشدائدِ درْعا دونَ عدوانِ

* * *

الاحســان

أحسنْ إلى الناسِ واجتنب غضبا با لمكرِ والحمقِ تلقاهم وبالفتنِ
فإنْ فعلتَ فحاذرْ وارتقبْ ألما يأتيكَ بالغدرِ والعدوانِ والمحنِ

* * *

النبيــذ

يقولون : النبيذُ نشوةَ قلبٍ يشحذُ الفكرَ يجلبِ الافراحَــا
ذاك «بَيْنٌ» وما أراه صَوَابا راحَ – والله – عقلُ من ذاقَ رَاحَــا

* * *

التحابــب

إن القلوبَ اذا هيَ انفتحتْ وأصبحَ الحبّ والايمانُ يغمرُها
شعّ السلام على الاكوان مؤتلقا وأفعمَ البشر روح الناس يعمرُها

حول تاريخ مدينة منزل تميم

بقلم : جلول عزونة

« فى أعماق كل واحد منا ترقد قرية »

(1) مقدمـــة

لقد كان **أول** من تعرض لهذا الموضوع حسب علمنا هو الاستاذ **الهادى بن** فضل مدير **المعهد** الثانوى بمنزل تميم وقد قمت بتلخيص محاضرته التى ألقاها منذ سنوات ونشرتها بنشرية **تميم** ، وقد كتب السيد عبد **الرحمان عبد** اللطيف ردا على ذلك نشر بنشرية **تميم** (1) وفيه أظهر عنايته **بتاريخ الوطن** القبلى ، **هذا** التاريخ الطويل الموغل فى القدم والذى لم تجد من يهتم بـه **الا** القليل النادر من الناس رغم أهميته ورغم ثرائه ورغم اتصاله بحاضرنا وامكانية تفسير مظاهر كثيرة ومتنوعة من حياتنا اليومية **الحالية بذلك** التاريخ .

والسيد عبد الرحمان بن عبد اللطيف من الذين تخصصوا فى كتابة تاريخ المنطقة بكتابه **المخطوط : تاريخ قليبية** والذى نشر منه بعض المقالات (2) .

---

(1) نشرية تابعة للجنة الثقافية المحلية ـ صدرت منها أربعة أعداد ثم أوقفت أنظر عدد 4 ص 23 الى 26 .

(2) راجع مقاله : **أضواء على تاريخ قليبية فى عهد الدولة الحسينية ـ** مجلة **مرآة الساحل** عدد 21 ـ أفريل 1971 ص 42 الى ص 45 . وقـد كـانت العناوين الفرعية لمقاله كما يلى : موقع قليبية وتاريخ تأسيسها ـ أصول السكان ـ قليبية اداريا ـ لغة قليبية ـ الجانب الدينى لمجتمع قليبية ـ المجتمع القليبى وصفاته (نشر مقالين آخرين واحـد **بالفكر** والآخر بجريدة **بلادى**)

والملاحظة الاولى التى أبدأ بها دراستى ستكون حول **المراجع** التى يمكن الاعتماد عليها لكتابة تاريخ منطقة من مناطق الجمهورية التونسية .

ونحن لنا **مراجع مكتوبة** عديدة قد تكون ذات قيمة كبيرة جدا **ولو أنها قد** تكون أغلب الاحيان صامتة كل الصمت عن ذكر مكان معين أو جزئية عن تلك القرية بالذات أو عن القرية الاخرى ولكننا نستعملها مع ذلك مع بعض الاستنتاجات المنطقية مخصصين مكانا ما أو قرية ما أو قبيلة ما بما ورد ذكره فى كتاب ما عن منطقة بأكملها او عن فترة زمنية بأسرها مطبقين القاعدة المعروفة : **يصح على الجزء ما يصح على الكل او ما صح على العام يصح على الخاص** .

ولكن بجانب المراجع المكتوبة « كتب تاريخ أو أدب ، كتب رحالة ، عقود عقارية ، وصف معارك ، مقالات صحفية ، مذكرات أو مفكرات شخصية ، محاضرات ، أبحاث وثائق سينمائية أو تلفزية .. الخ » هناك ميدان آخر فسيح أعنى به كل **ما تحفظه الذاكرة الشعبية** من أدب وشعر وخرافات واعتقادات وطرائف وأمثال وقصص تكون حديث سمار الليالى فى القرى والارياف ، يحفظها أب عن جد بالتواتر أغلب الاحيان ، يغار عليها الابناء كغيرتهم على أعز ما يملكون، تمثل للمؤرخ ثروة لا تقل قيمة وثائقية عن الدين وعن الفن المعمارى وعن الوثائق المكتوبة وعن مظاهر الحضارة الاخرى .

ولكن مع هذا يجب على المؤرخ ان يحتاط كثيرا وان يتقبل بعين فاحصة نقدية كل تلك الموروثات المروية لأننا نعلم ان التغيير المقصود عن حسن نية سريع الوقوع فيما يروى مشافهة . وكلنا يتذكر قصة الغراب الاسود او الغربان السود التى تقيأها مريض ما بأحد المستشفيات وكان الواقع ان ما قاءه مريضنا كان أسود **كالغراب** لا أكثر ولا أقل . ولكن ممرضات المستشفى قد أضفن أشياء من خيالهن مؤكدات تلك الحقيقة العلمية ان الراوى حسب ميوله وخياله ومؤهلاته وحسب استعدادات تلقيه للأخبار وحسب الظروف التى هو فيها يمكن أن يضيف أشياء أو ينقص أشياء لما سمع عند روايته لها جاعلا الرواية تبعد بقدر ما عن الامانة العلمية التى يفترض فيها عدم التغيير فى ما يروى ولو قيد أنملة ... ولكن أنى ذلك وللراوى نفسه وصوته وحركات يديه وتعابير وجهه وطبعه مما يجعل كل رواية شفهية عملية خلق حر بأتم معنى الكلمة .

كل هذا أقوله حتى أؤكد ان هناك تقاطعا غريبا وصدفة تستحق الوقوف بين ما اكده الاخ عبد الرحمان عبد اللطيف (3) من انتساب منزل تميم « الى

بعض بطون قبائل بنى هلال التى اجتاحت البلاد التونسية بأكملها منذ سنة 1051 م فى موجات متتالية وسكنت بعض تلك القبائل منطقتى منـزل تميـم وقليبية بكثرة كاثرة جدا » وبين ما برويه شيوخ منـزل تميم تواتـرا عـن آبائهم من أن منزل تميم يرجع بعثها للوجود منذ **ثمانمائة عـام تقريبـا ، أى الى القرن الحادى عشر مسيحى** ، أى الى تلك الفتـرة المضطربـة التـى رأت الارضية السكانية بالبلاد التونسية تغييرا جذريا قوامه زحف بنى هلال وبنى سليم وانتشارهم في كل مكان واضطراب السلطة المركزية لدولة بنى صنهاجة بالمهدية وخروج المناطق الواحدة تلو الاخرى من أيديها .

وقد ثبت تاريخيا أن تميم بن المعز الصنهاجي قد حاول ان يسترجع قلعـة اقليبية التى خرجت من حكمه كغيرها من القـلاع والمـدن فى تلـك الفتـرة المضطربة ، ولكن تميما قد عجز عن استرجاعها وقد يكون نزل فعلا بعسكره بمكان ما قرب قليبية ، وقد يكون منزله « منزل تميـم » !. على ان يحيى بن تميم بن المعز سينجح بعد ذلك فى استرجاع قليبية . يقول ابن ابى الضياف :

« ولما تمهد أمره ، عدل فى الرعية وجرد العساكر الى قلعة إقليبية ففتحها، **وقد عجز عنها أبوه** . » (4)

وقلعة قليبية ستبقى على تلك الحالة من خضوع أمرها للسلطة المركزية حينا ومن استقلالها حينا آخر على أيدى العرب زمنا طويلا ، وستصمد بعـد ذلك فى وجه احتلال صاحب صقلية المسيحى من دون القلاع والمـدن : « ولـم يقدر عليها لتجمع أكثر العرب بها » (5) .

ويمكننا ان نستنتج ان قلعة قليبية وهى مسرح حـروب ومحـط مطـامع داخلية وخارجية قد إستوجبت إنشاء تجمع سكنى غير بعيد عنها يكون بمثابة مركز مراقبة متقدم ومحطة استراحة وتمويل للجيوش القادمة من العـاصمة المهدية .

---

(3) انظر ايضا مقال : عبد الرحمان عبد اللطيف : **مدينـة قليبيـة عـلى مـر العصور ــ الفكر** نوفمبر 1978 ص 40 الى ص 49 . **وقصر رباط قليبيـة** الملحق الثقافى لجريدة **بلادى** بتاريخ 12 الى 18 جوان 1978 ص 30 .

(4) « **إتحاف أهل الزمان** » لأحمد بن أبى الضيـاف ــ الجزء الاول ــ طبعـة الدار التونسية للنشر ــ 1976 ص 176 ــ 177 و 180 .

(5) نفس المصدر السابق ، تولى تميم الملك بعد وفاة أبيه المعز سنـة 1062 م وتوفى سنة 1108 م . أما يحيى بن تميم فقد قتل سنة 1116 م من طـرف اخوته . وفى زمن تميم سقطت صقلية فى أيدى النرمان .

ولعل تلك الفترة ـ وهى فترة حكم المرابطين بالمغرب الاقصى وبالاندلس وقد طار صيتهم واشتهروا بدفاعهم عن الاسلام ـ قد خلقت حركة أو جددتها ـ لانها ما انقطعت ابدا فى الامة الاسلامية ـ للدفاع عن الديار الاسلامية المهددة فى بقائها من طرف قوى النصرانية تحت راية الكنيسة .

وفعلا فان تهديدات النصارى كانت مباشرة ومتواصلة فقد قدم اسطول من جنوة سنة 1087 م يحمل 30.000 مقاتل فاستولوا على المهدية ثم انصرفوا على مال أخذوه . وقد قصد أهل رومة كذلك تميم بن المعز فى أسطول « وهزمهم وقتل كثيرا منهم » وبعث يحيى بن تميم « أسطولا الى بلاد الروم فغنم وسبى » .

ولعل الربى المحيطة بمنزل تميم قد استعملت فى ذلك الوقت كنقط مراقبة نظرا لاطلالها على البحر ونظرا لموقعها الستراتيجي وهى تقع قبالة جزيرة بنتلارية « جزيرة قوصرة ، ذلك الحارس المسيحى المتقدم » ولا تبعد منزل تميم عن قليبية الا على مدى مرمى البصر .. ولا شك ان ظاهرة **المرابطة الدينية العسكرية** بمنطقة منزل تميم قد ظهرت أو تأكد دورها فى تلك الفترة الحساسة من تاريخ تصادم قوى الاسلام مع القوى النصرانية وهذا ما تؤكده كل الروايات الشفوية بمنزل تميم ...

ونحن وان كنا نعتقد انه لا يجب ان نبالغ فى أهمية الماضى الذى يمكن أن نستنتجه من الروايات الشفوية كما يحلو لعلماء الاجناس الغربيين القيام به ، فاننا نعتقد أن تلك الروايات يمكن أن تكون منبعا لا يجف من المعلومات بالنسبة للبحاثين (6) ودليلا تاريخيا مهما « لأنها ترتبط بحاضر الراوى والسامع بقدر ما ترتبط بالماضى الذى يمثل ظاهريا محورها الرئيسى » (7)

ومن الخطا ان نجلب تاريخا من مصادر ككتب الرحلات والاثار المعمارية والوثائق التاريخية والسجلات العقارية بدون أن نبحث عن **تكملة** لذلك تتكون من مساهمة التراث الشفوى الذى يلقى بدوره أضواء كشافة على التاريخ ويمكن من المقارنة ومن كتابة تاريخ موحد ، ولكن هذه العملية يجب

---

(6) انظر مقال : فرج البدوى عن **طبلبة** ، جريدة « **لوطون** » بالفرنسية عدد 23 أوت 1977

(7) انظر مجلة **الاذاعة والتلفزة** ، صيف 1977 ، مقال أحمد الحمرونى : **نبذة من تاريخ تستور** ص 23 ، وهو عرض لدراسة كتبها بالفرنسية الدكتور نكولا هوبكنس ، أستاذ الانتروبولوجيا بجامعة نيويورك سابقا وبالجامعة الامريكية بالقاهرة حاليا !!

أن تتم مع كامل الانتباه الى طبيعة المعلومات التاريخية التي تضمنتها **لان** : « المأثورات الشفوية لا تزودنا « بحقائق » تاريخية ولكنها تعبر عن الذاكرة الجماعية للقرية ورؤيتها لسير الحوادث » مما قد يسمح لنا بتفسير أصح لمعلومات مستقاة من مصادر أخرى .

وهكذا يمكن أن نتفق على **المفهوم الافضل للتاريخ** ، فحتى « اذا كانت حكاية المؤرخ بعيدة الى حد ما عن الحقيقة التاريخية فانه من الخطأ الوقوع في نسبوية مفرطة لانه من الممكن ـ حتى وان كانت الحقيقة الصافية تصعب معرفتها على نحو مؤكد ـ أن نثبت وجود روايات كثر صدقا من غيرها » (8).

فهدفنا هو مقارنة المنقولات التاريخية المتباينة ، والشيء الهام هو الانتباه الى ان **جميع المرويات تشتمل على حصتها من الذاتية والتداخل ... وهذا** الامر ان هو لم يؤد الى الموضوعية فانه يعتبر نوعا من التقدم .

وفيما يلي سنستعرض مجموعة من الحقائق ومن الروايات .

(2) منزل تميم في عهد ما قبل التاريخ

إن **منطقة منزل** تميم كانت آهلة بالسكان منذ عهد ما قبل التاريخ ، فوجود قبور بكل من منطقة سيدي جمال الدين (9) وبالخربة (حي الازدهار الآن) في طريق الشاطئ أين عثر على مصابيح ، رأيت أحدها عند بعضهم ... وقد وقع العثور على أشياء أخرى ... ووجود **خلاوي** (مغارات) بربوة سيدي سالم ما بين الشاطئ ومدينة منزل تميم لدليل قاطع على ذلك ، رغم أن بعض المؤرخين يرى أن تلك **الخلاوي** انما هي من زمن « المرابطين » استعملت كمحلات سكنى وكمخازن للسلاح والمؤونة ولكن قدم تلك الخلاوي لم يعد محل شك بعدما كتب عن ذلك ف. بونيار (10) وغيره .

---

(8) أنظر تقديم لكتاب: **الارتكاز العرقي والتاريخ** لروى بريسويرك ودومينيك بيرو ـ منشورات انتروبوس ـ باريس ـ جريدة **الصدى** ـ 1 أوت 1977 ص 18 .

(9) هناك بئر قديمة مبنية بأحجار كبيرة الحجم ، وهناك بقايا حائط كبير الحجارة استعمل لبناء بيت جديد .

(10) انظر نشرية **الحياة** التميمية ، صوت الشبيبة المدرسية والطالبية لشعبة منزل تميم عدد 9 ـ س 3 ـ جويلية 1967 ص 11 ـ 12 ـ 36 و37 عن **خلاوي سيدي سالم** نقلا عن دراسة ف. بونيار المؤرخة في سنة 1928

لقد كان شمال افريقيا مسكونا منذ الفترات الغابرة أى منذ الخطوات المتعثرة الاولى للانسان البدائى اى منذ العصر الحجرى الاول اى منذ ما يزيد عن 30 ألف سنة . رغم ان التاريخ الاول المحقق لوجود هيكل بشرى بشمال افريقيا يرجع الى ما بين 9 و 11 ألف سنة (11)

لقد وصلت مجموعات بشرية أولى الى الشمال الافريقى من الشرق الاوسط وهى تشبه من حيث التطور الحضارى مجموعة مماثلة وصلت الجنوب الاوربى من نفس المنبع ، أى الشرق الاوسط (هومو سابيانس ، انسان كرو ـ مانيون) .

وقد ظهرت حضارة أولى متطورة ، حجرية فى الالف السابعة قبل الميلاد فى الصحراء وفى المناطق المتاخمة لها بالشمال الافريقى دون ان تمس السواحل فى الشمال الافريقى ، فقد بقيت هذه الاماكن التى ستنشأ فيها قرطاج على معزل من هذه التيارات الحضارية . ولم تصلها مبادىء التطور من افريقيا او من أوربا الا فى فترة متأخرة . وبقيت منطقتنا هذه بما فيها الوطن القبلى فى تأخر كبير اذا ما قارناها بغيرها من المناطق مثل الجنوب التونسى أو أوربا ، وستبقى هكذا الى زمن وصول الفينيقيين فى تأخر نسبى كبير .

فقد نشأت فى الجنوب التونسى حضارة افريقية فى منطقة قفصة تسمى **الحضارة الكبسية** وذلك قبل الالف السابعة قبل الميلاد . واصحاب هذه الحضارة هم **الأجداد المباشرون للبربر** . ولم تمس هذه الحضارة السواحل التونسية الشمالية وهذه الحضارة متطورة جدا بالنسبة لحضارة البدائيين القاطنين بالسواحل الشمالية .

ونصل الى **العصر الحجرى الجديد** الذى وصل السواحل التونسية بصفة متأخرة نسبيا ، فقد ظهر بالشرق فى الالف الثامنة قبل الميلاد وظهر العصر الحجرى الجديد فى حوض البحر الابيض المتوسط قبل الالف الخامسة قبل الميلاد ولم يصل السواحل التونسية الا بعد ذلك بكثير . وبقيت معه مظاهر عتيقة من الحضارة البدائية التى سبقته . فقد كان الناس يسكنون فى تلك

---

(11) انظر مقال : ليونال بالوت : **المغرب الشرقى قبل قرطاج** ، مجلة **الاركيولوجيا الحية** ، عدد خاص بقرطاج ، عدد 2 ـ ديسمبر 1968 ، فيفرى 1969 ص 13 الى ص 21 .

الفترة **الكهوف** او سفوح الجبال . لم تظهر بعد القرى والتجمعات السكنية الريفية الصغيرة مثل بلدان الشرق فى نفس الفترة ، ولم تبرز بعد الفلاحة والتى لا تظهر لنا جليا الا عند قدوم الفينيقيين . لقد ظهرت فى مناطقنا تربية الماعز والخرفان والحصان وقد وقع جلبها من الشرق عن طريق البر . وان كان الخروف أول ما ربى .

ان ساكن السواحل التونسية والوطن القبلى فى ذلك الوقت يبرز لنا كخليط من الانسان الكبسى والانسان البحرى البدائى وهو على كل حال قريب جدا من الانسان البربرى الذى ستعرفه البلاد بعد ذلك وحضارته حضارة حجرية متخلفة ولكنه اى ساكن المغارات هذا ـ يحسن صقل الاحجار وصنع أوانى فخارية وهو يعيش بأكل الحلزون وببوش المياه العذبة بجانب الصيد .

ولكن ميزة حضارة الشواطىء هذه بما فيها الوطن القبلى **ليست فيما تقدم** ذكره وانما فى **ظهور حجارة مصقولة من أصل بركانى** ، فهذه الحجارة غريبة الوجود فى هذه الاصقاع ولا يمكن أن يكون اصلها الا من جزيرة بنتلارية (قوصرة) قبالة منزل تميم او من جزر أخرى من أحواز صقلية . وقد استوطن الانسان جزيرة قوصرة فى هذا العصر بالذات اى فى العصر الحجرى الجديد . ونجد نفس الحجارة بكل من جزر صقلية وسردانيا . فالثابت اذن ان الانسان قد اجتاز فى تلك الفترة مضيق صقلية وقد لعبت الشواطىء التونسية دورها اذن فى تواصل الانسان بين افريقيا وجزر البحر الابيض المتوسط ، كرسيكا ومالطة .. الخ .

فميزة هذه الشواطىء الكبرى هى فى **مد قناطر الاتصال بين افريقيا واوربا.**

ونصل هكذا الى **الفترة التى تسبق التاريخ مباشرة** أى الى الالف الثالثة والثانية قبل الميلاد وهى فترة حاسمة جدا فى تاريخ البشرية للتغييرات الكبيرة التى شهدتها ، فقد غزا فيها الانسان الكبسى كل الشمال الافريقى ولكن الانسان الكبسى قد تطور هو نفسه وظهر البرابرة ويظهر عند البربر تأثيرات أوربية وان كان أصلها ينبع من الشرق،فقد ثبت الآن أن مضيق جبل طارق ومضيق صقلية قد اجتازهما الانسان فى تلك الفترة وقد سكن الانسان كل جزر الساحل الافريقى التى ترى بالعين المجردة .

فنحن نجد فى الشواطىء التونسية كل ما نجد فى الجنوب الايطالى وبصقلية وبسردانيا فى العصر البرنزى وفى أول العصر الحديدى . فقد كانت هذه المناطق من جنوب أوربا همزة وصل للعادات الشرقية مثل تزويق الفخار ومثل بناء القبور الصخرية أو نحتها فى الصخر **كالحوانيت** والتى سبقت قدوم الفينيقيين ونحن نجد هذه الحوانيت بسردانيا ومالطة وجزيرة جالطة وجربة وبالسواحل التونسية (جبال خمير « الدبابسة » ومنطقة الساحل الخ) .

وهذه القبور تفترض وجود تنظيم اجتماعى ووجود حياة مستقرة فى شكل قرى ظهرت بعد العصر الحجرى الجديد ولكن قبل قدوم الفينيقيين اى فى النصف الثانى للالف الثانية قبل الميلاد (12) لقد صارت الشواطئ التونسية ولأول مرة بعد ماض افريقى طويل ، تنظر نحو الشواطىء الشمالية للبحر الابيض المتوسط ونحو شواطىء صقلية . وقد حاول **انسان الشواطىء** التونسية رغم التأثيرات الحضارية الخارجية المحافظة على **عاداته القديمة** وبالخصوص عادات الدفن وهى التى تدوم اكثر من غيرها . **فهو يدفن الميت** فى وضع جانبى وانطواء على النفس مع استعمال اللون الاحمر **علامة الموت** ، ويترك الميت فى الخلاء حتى يذوب لحمه ثم يدفن نهائيا .

وقد كان تأسيس قرطاج يمثل قفزة تاريخية حضارية عملاقة تقدر بآلاف الاعوام بالمقارنة مع ما حملته من تقدم لقوم متأخرين حضاريا . **وحصل هذا عند انطفاء الحضارة الكبسية التى تمثل مفخرة من مفاخر افريقيا وستصبح** تونس ملتقى طرق البحر المتوسط ، الطريق الاول شمال جنوب **وهو الذى فك** عزلة البلاد وذلك بالاتصال المبكر بأوربا والثانى شرقى غربى وسيلعب الفينيقيون فيه دورا اساسيا لمدة قرون .

جلول عزونة

– يتبع –

---

(12) انظر كتاب : آشلى مونتاجيو ترجمة الدكتور رمسيس لطفى : **المليون سنة أولى من عمر الانسان** نشر مؤسسة سجل العرب ، القاهرة 1965 (ص. 270) وكذلك كتاب : أوجين بتار (بالفرنسية) : **تاريخ بنى الانسان الاول** نشر : المون بلان – بسويسرا – لوزان ، 1944 (ص. 119) وكذلك كتاب التونسى .

ويرحل مثل النوارس ظلي ..

شعر : البشير المشرقي

وَيَرْحَلَ مِثْلَ النَّوَارِسَ ظِلِّي – غَدا –
وأكونُ مع الريح أشهقُ فِي الفلواتِ ..
وأكون مع الوهمِ أعدُو .. ولا وجهَ لِي
غير جُرْحِي المُقَنَّعِ .. كُلَّ الدُّرُوبِ التي جُبْتُهَا أنْكرتْنِي
وَ مَا فَهِمَتْنِي
وَهَا أنَّنِي فِيكَ .. مُغْتَرِبُ القَلْبِ .. يا وَطَنَ الحُلْمِ ..
كُلَّ المَسَارِبِ قَدْ لَفَظَتْنِي

وَحِينَ تَدُقَّ النَّوَاقِيسُ فِي غُرْبَتِي .. يَكْبُرُ الجُرْحُ .. يَنْغرِزُ
اليَأْسُ بَيْنَ الجَوَانِحِ .. يَسْطُو المَسَاءُ عَلَى مُدُنِي
وَتَمُدَّ ذِرَاعَيْكَ يَا وَطَنِي
لِتُطَوِّقَنِي
وَتَبْعَثَ دِفْءَ المَوَدَّةِ فِي بَدَنِي !

* * *

حِينَ جِئْتِ معَ اللّيلِ يا امْرَأَةَ ضَيَّعَتْنِي
وكنت أنا مُتْرَعَ القَلْبِ بالسّحرِ حِينَئِذ
كنتِ تَهْمِينَ كالمُزْنِ في قلبِيَ النّازفِ الجُرْحِ ..

كنْتِ كؤوسَ نبيذ تُبَدِّدُ شَكِّي
فَيَا زمنَ الوصلِ عُدْ .. فأنا مثل صَفصَافَةِ القَفْرِ أبْكِي !

* * *

حينَ أتيْتِ .. وكان الكلامُ عن العشقِ – قَبْلَكَ – مَيْتًا ..
توَغَّلْتُ حتى حدود التَّرَنُّحِ فِي الحُب .. أغْرَقْتُ في العشقِ
كُلَّ الشُّجون القديمَه
وكلَّ الطقوسِ السَّقيمَه
فَإيَّاكِ أنْ تُبْعِدِي النَّارَ عَنِّي
وإيَّاكِ أنْ تُبْعِدِي النَّارَ عَنِّي
فَبِالنَّارِ يَا فِتْنَةَ العُمْرِ يَحْلُو التَّمَنِّي !

* * *

حينَمَا جئْتِ .. كَانَ الرَّبِيعُ وكانَ انْسِلاَخُ الطَّبِيعَة
عنْ قشْرةِ الحُزْن .. كانَ التَّبَرّجُ والسَّهْوُ والإنفِتَاحُ
عَلَى الكَأْسِ .. كَانَ انْحِلاَلُ الأحَاسِيسِ
والشَّهْوةِ العاتِيَه
ولكِنَّنَا اليومَ يَا غَالِيَه
كمَا البَحْرِ .. يُغْرِقُنَا المَدّ ... يَجْرُفُنَا الزّمنُ الهاربُ
الظِلَّ فِي ثَانِيَه !

* * *

سَيَرْحَلُ مثل النَّوَارِسِ ظِلِّي غَدا
وتكُونينَ يَا امْرَأَةً مَلأَتْ بِالْجِرَاحَاتِ زَادِي
كَصَفْصَافَةِ القَفْرِ ، تَبْكِينَ .. تَبْكِين
لَكِنَّمَا الصَّوتُ مِنْكِ يَضِيعْ
مَعَ الرِّيحِ .. دَوْمًا يَضِيعْ
وَيَغْمُرُ قَلْبِي أنَا .. في مَسِيرِي الصَّقِيعْ ..!

البشير المشرقي

هل ابتسم الثعبان ؟

قصة : حياة بن الشيخ

أربعة يسيرون . يلاحقون الظلال الساخرة من عنادهم . يتعثرون دون هدى كفلك ضائع فى سماء حبلى بالشهب الدكناء ، وسط أدغال غابة نائمة تحت أفنان أشجارها .

تخر على الارض لاهثة ، متقطعة الانفاس ، صريعة حمى موبوءة المصدر .

ـ حسبى جهدا وتعبا . نفذت عزائمى . وتحطمت قواى . حاولت أن أتحدى الزمن . اغتصب القدر . لكن الزمن تسلى بتمزيق أيامى . والقدر كان أقوى من أن أقتحم عرينه . يمكن لكم مواصلة السير . دعونى هنا ألفظ آخر أنفاسى لن أصل . سأموت قبل أن أصل ..

انكبوا قربها بين لاهث . ويائس . وضجر .

ـ لن نصل . أظن هنا كتبت علينا النهاية . سنفنى كالقطط الشريدة جوعا وعطشا . الجنون وحده هو الذى قادنا الى هذه المسيرة المشؤومة ..

ـ النهاية ؟ أتسخرون من أنفسكم . من منكم يعرف متى وكيف تكون النهاية . لو كنت أعرف النهاية لما حملت نفسى هذه المشاق . ولا سرت خطوة واحدة فى شوط العذاب .. ولكن ..

ـ ظمأى . هل من قطرة ماء ؟ انى أموت . أموت ..

ـ لم يعد لنا ولا قطرة ماء . ولو قطرة ماء . ولم يصادفنا نهر منذ أكثر من ثلاثة أيام . كارثة جديدة تحل بنا . الظمأ . سنموت بالجملة .. على الاقل لا خوف علينا من الوحدة ..

ـ الموت هو أعذب المنى ، لا تدركه غير فئة محظوظة من البشر كتب لها الخير من يوم أن ولدت ، ولا أخالنا نحن سننسعد بالانتماء الى هذه الفئة المختارة ، الموعودة بالسعادة ..

ـ أتمنى لك اللحاق بقافلة هذه الفئة المختارة ، ان كان مازال المجال قابلا للاماني . وهنيئا لك بهذه السعادة الموعودة مسبقا ، أما أنا فأهفو الى سعادة على شكل آخر ..

ـ أتمزحان وهذه البائسة تموت بين أيدينا ؟

ـ وما عسانا أن نفعل ، ثم أهي الاولى ؟ لقد مات قبلها عشـــرة .. عشـــر ضحايا لمسيرة اليأس والجنون . عشرة موتى قد ماتوا . وأربعة أحياء أموات . منهم واحدة فى طريقها للالتحاق بركب السابقين الى رحلة المنون .

ـ الكلام لا يجدى نفعا . لا بد أن نفعل شيئا ..

ـ ألا ترى أننا عاجزون عن فعل أى شـىء ، وما أمامنـــا غير الصمـــت . الصمت هو الترياق الوحيد الباقى لنا لنضمد جراح خيبتنا . الصمت هو انتقام الايام لنا . اصمت توفر جهدا . ثرثر تفقد أملا ولو كان مخادعا .

ـ إنى أشاهد مصيرى ومصائركم معى فى احتضار هذه البائسة . كما رحل الآخرون ، سنرحل نحن غدا . أو بعد غد . الفناء يترصدنا . وأفظع من الفناء هذا الاحتضار اللعين الذى سنسلك سبيله غصبا ..

ـ سخافات . لا شىء أفظع من الدنيا . فلا تذرف الدمع عليها كثيرا . هى كالبغى المسلوبة الشعور لا يجدى معها غزل ولا نواح . أنظرا . لقد لفظت آخر أنفاسها . انتهى بها المطاف . أخيرا اقتطفت ثمرة ما . حققت حلمـــا . انمـــا نحن ..

ـ عن أى حلم تتكلمين . ها هى ترحل قبل أن تسعد بما تاقت نفسها اليه . عاشت عاقرا تعسة تهفو الى طفل يكلل حياتها بالبهجة والحبـــور ومـــاتـــت عطشى ترقب قطرة ماء ولا تجدها ..

ـ لقد توج حياتها الغباء . يا للحقارة . عاشت وماتت من أجل حلم سخيف أيستحق طفل أن تحمل نفسها من أجله مغبة مسيرة جنونية.أتحسب أنالآلهة ستهتم بأمل تافه مثل هذا . أحسن المنون اذ اختطفها ، واختطف سابقيها ، ما دامت الآمال التى دفعتهم لا تستحق المجازفة . لقد انتقم الموت منهم لحقارة مطالبهم . وسذاجة أمانيهم .

ــ يا للقساوة . الرحمة . ألا من ذرة خشوع أمام الموت . قبل هذه البلبلة ، فكرا فى ما سنفعله بالجثة . ان كنا قد استطعنا دفن الآخرين لا أشعر بالقدرة على الحفر لاوارى هذه الجثة الاخيرة . قواى فى فرار ..

ــ ولا أنا . الاعياء أنهكنى . لا أستطيع أن أمد يدا .

ــ اذن لا داعى للتفكير فى الامر . فلنتركها كما هى . نقدمها وليمة لوحوش الغابة ..

ــ أنت على حق . فلنتركها كما هى . ستكون هبة لاله الغابة ، ربما ساعدنا على ايجاد طريقنا .. والوصول الى المعبد المرجو .

ــ يا لقذارتكما . ألا تعرفان أن اكرام الميت دفنه . أتريدان أن تظل روحها ضالة الى الابد دون مستقر ..؟

ــ دعابة . ما ضلت الروح يوما دربا . الجسد وحده منبع اللؤم والضلال وما دام سيذهب قربانا للوحوش النهمة فلا خوف على ما بقى .

ــ لن تقنعينى بمنطقك السقيم . لا بد أن تدفن . كم أصبحت أخشى أن ألفظ أنفاسى أنا الآخر وتتركاننى مهملا فى الخلاء . أنتما تفوقان الزمن كفرا . وتتحديان الوجود قسوة .

ــ على كل تستطيع أن تبقى تحرس الجثة الى أن تلتحق بصاحبتها . لا داعى لمواصلة السير ان كان مطلبك حقيرا كمطلبها . وحلمك سخيفا كحلمها . فلن تنظر الآلهة فى أمرك .

ــ مطلبى ! انه أهم ما فى الحياة . تذل له كل النفوس . وتخر أمامه صرعى كل الهمم . المال . المال .. ذلك الجبار الرهيب سيخر صريعا تحت قدمى . لن أبقى فقيرا ، معدما الى الابد . سأنتصر على الفاقة . على الخوف من الغد .. ولن يكون ذلك الا بالمال . كل ما ألمسه سوف يغدو ذهبا . هذا ما ستحققه لى الآلهة . سأغرق الدنيا حولى فى وهج العسجد ..

ــ تافه . أما زلت تعيش على الاساطير . كان ذلك ممكنا فى خرافات ألف ليلة وليلة ، انما الآن .. ما عاد فى جوف الارض كنوز .. ولا تعاويذ تجعل من الحجارة ذهبا ..

ــ لن تغيرى رأيى . سأواصل مسيرتى ولا بد أن تسمع الآلهة شكواى . تحقق رجائى . سأعود قريبا قويا ، جبارا . أتحدى الجميع بثرائى وأصفع

الكل بالخوارق التى ستتوجنى بها الآلهة . سأصبح أشرف أشراف قومى . وسيد مدينتى . تلك المدينة التى ما عرفت غير الفقر . ورصدت لمواسم القحط لن يخيب مسعاى . سترين ..

ـ ألا تكفان عن هذا الهراء . هيا بنا نواصل السير . حسبنا ما أضعنا من الوقت ..

ـ والجثة ، ماذا سنفعل بها .. ألن ندفنها ؟

ـ هل ستجعل من هذه الجثة مشكلة . لن أفقد ما بقى لى مـن قـوة فى الحفر ورفع الاثقال . الاجدر بنا أن نسارع بالبحث عن نهر والا ...

ـ لقد غيرت رأيى . لا بد أن تدفن . لن تبقى ضـالة الـروح الى الازل . ضالة فى العالمين الفانى والباقى . مهزلة لا تقبل ..

ـ ماذا ؟

....

ـ كل يوم أزداد يأسا وقنوطا . كل لحظة تمر ترفع حاجزا بيننا وبين الحياة تركلنا نحو هاوية الشك .. نحن نحث الخطى بسرعة خيالية نحو الموت . ما كان هذا منطلق آمالنا ..

ـ وما أدراك بآمالى . أنت تتكلم عن نفسك فحسب . هذا ليس رأيى .

ـ وما هو رأيك . ألم تلاحظى أن كل شمس تشرق ليوم جديد تكون علامة اندثار أحد منا . ها قد ذهب التائه الاخير . ولم يبق سوى أنا وأنت . ومن يدرى من سيكون ضحية الغد أنا أم أنت ؟ رحل الجميع . وانتحرت أمانيهم فى صدورهم ، وما عاد للوهم أى منفذ . ما رأيك فى العودة لو نحاول نسيان هذه المهزلة المضحكة .؟ وضعتنا الاقدار فى طريق بعضنا . فتعارفنا . وان كانت قد فرقتنا الانواء فها هى قد جمعتنا صدف الاحلام المعتوهة . أصبح الشك يقينا . والحقيقة باطلا . ضعى يدك فى يدى وهيا بنا نترك المـاضى وآلامه خلفنا ونواجه الغد .. لم أعد أرقب غير العودة . العودة ..

ـ كفى وهما وتضليلا . لقد سدت كل طرق العودة وما أمامنا الا السير . ربما وصلنا . ربما التهمتنا الانواء كما كان نصيب الآخرين . ومهما يكن ، لم يعد لنا لا ماض ولا مستقبل . فقدنا الاول . والثانى نحن فى صدد فقدانه

ـ لم تحصد مواسمنا غير الجثث . لقد غزا قلبي الخذلان .. ألم تيأس أنت؟

ـ لم أعرف الامل . حتى اعرف اليأس . تساوى لدى الكل ..

ـ ما تحملت هذه المشاق لو ما كان لديك أمل فى شيء . كلنا ما تركنا ديارنا ومدننا خلفنا الا لتحقيق أمنية . وارواء غلة . لا تحاولي خداعي وخداع نفسك .. أنت حزينة حتى وان كنت لا تجهرين بذلك . بدأ عزمك يفتر . رأيتك البارحة وأنت باكية . لم ... كن نائما كما حاولت أن أوهمك . لقد حيرنى أمرك . أنت لغز رهيب الاسرار أشتاق الى حل طلاسمه . مرة عنيدة ، آمرة ، جسورة ، تثيرين الريبة والخشية . وأخرى حزينة .. ضعيفة .. باكية تنتزعين الدهشة والتعجب !! كم أود أن أعرف من أنت . هل خلف هذا الوجه الجميل على رغم كآبته ، حكايا غامضة ومثيرة ؟.

ـ أرجوك . لا تشيد لى من الافتراضات الخاطئة هرما . ولا تجهد نفسك بملاحقة خيالك المجنح . لم أبك لانى فقدت الامل كما تتوهم ، فليس الامل هو الذى دفعنى لاقتحام المجهول ، انما القلق والسأم ، هما الدافع الاول لمحنتى الراهنة . سئمت الحياة . سئمت الانحناء الى القدر . سئمت السأم . هل عرفت يوما معنى السأم ؟

ـ ربما ما عرفت فى حياتى سوى الخوف .. والآن خوف جديد ينتابنى . أصبحت أشك فى وجود الآلهة . من يدرى ؟ ربما ما كانت غير فكرة منحوسة تمخضت فى متاهات عقول مريضة أضناها الوهم ؟ .

ـ ان كان هذا رأيك ، فلا داعى لمتابعة السير . ما عليك الا البقاء فى موقعك فى انتظار الموت ، اذ أمل العودة أمسى هو الآخر وهم عقل مريض .

ـ أتوعدينني بالدفن لو مت قبلك . اوعدينى ..

ـ هل جننت . أتحسبنى قادرة على الحفر ؟

ـ اذن ستتركيننى نهب الوحوش المفترسة ؟

ـ خلقنا لنكون نهب وحش ما يفترسنا ، لم الثورة والتساؤل ؟

ـ دفنت الآخرين . وحملتهم فوق كتفى . وها أنذا سوف أفنى دون أن أجد من يحملنى فوق صدره ، ويوارينى التراب .

ـ لا تبتئسى . حملتك الارض سنوات .. والآن ان تخلت عنك ..

ـ لقد هلكت . لا أستطيع صعود الجبل . رجلاى لا تقويـان على السير . التعب .. واليأس قد نبشا تربة مرضى القديم . ربما عاودنى أشد ضراوة ، والمعبد مازال بعيدا . أليس كذلك ؟

ـ نعم ما زال بعيدا . بعد السعادة عن الانسان . بعد الخير عن الارض . بعد الراحة عن الوجود . لكننا سنصل . لا بد أن نصل ..

ـ أراك عنيدة . أتساءل أحيانا ، أأنت مثلنا تنتسبين الى الجنس البشرى أم من أية طينة خلقت ؟

ـ وأنت غبى على ما يبدو . أتساءل الى أين سيقودك هذا الغباء . الحياة ليست لقمة نلتهمها ، وركنا ننزوى تحت سقفه . هى شىء آخر . حلم أعظم وأروع مما تتصور ..

ـ لكننى لم أستطع أن أحلم ولو مرة فى عمرى . ولا أن أنقاد خلف الخيالات قضيت حياتى خائفا ، مرتعبا من المجهول ..

ـ ذنب لا يغتفر . لا تحلم أبدا ، وليس لك أية تصورات . أنت راكد . خامل كافكار تيس مشلول ..

ـ الاحلام للمجانين ، وأنا لست مجنونا . أنا لا أطلب سوى العيـش . العيش بأمان . ان كان مأربى هذا حلما ، فأنا أحلم ..

ـ العيش والامان عدوان لا يلتقيان فى حضيرة الحياة . لو التقيـا فهـى الكارثة العظمى ..

ـ سأجلس تحت هذه الشجرة وأرتاح . لن أتحرك مهما كان . شهر ونحن نسير . شهر والرياح تسلخ وجوهنا . والامطار تشوى أجسامنا . شهر والخلاء يتلهى بمصائرنا ، والعواصف تتسلى بنا ، كل ذلك من أجل أمر لن يتحقق . ابتلع التعب كل ما بقى لى من صبر وأمل ..

ـ ألم تتعبك ثلاثون سنة ، وأرهقك شهر واحد ؟ يا للسخرية !! على كل نحن على وشك الوصول .. لن تتخلى عنا الآلهة . لقد كانت تشرق منا مى كل ليلة . تدفعنى نحو المغامرة المرتقبة .

وبالامس رأيتها بالليل . كانت تربت على كتفى مطالبة منى عدم التخاذل . تدلنى على أيسر طريق يمكن لنا اللجوء اليه حتى لا نضيع ثانية وسط هذه الغابة الحالكة ..

ـ ألم تقولى : إنك لم تنامى البارحة ، كالايام الفارطة .. فمتى كـان لـك اللقاء بها فى اليقظة أم فى المنام ؟

ـ محقق أبله . قل : بين بين ان شئت . كنت فى غفوة ورأيتها تطل على بوجه صبوح . عيناها زاخرتان بوعود مبهمة الآمال . يداها ممتدتان تبحثان عنى فى رقة حانية . تقدمت . أسرعت نحوها . كانت بيدها اليمنى كأس من الذهب. ازدادت ابتسامتها حنوا . قدمت لى الكأس . غمرتنى فرحة صاعقة . بريق العسجد ينهب بصرى . اكسير السعادة والحرية يقبع فى جـوف الكـأس . مسكت الكأس بيدى . قربتها من فمى لانهل قطرة ، فاذا بها ملآى دما قانيا كدم الزنجى الصغير الذى افترسه الليث ثالث يوم التقينا فيه .

سقطت الكأس من يدى تغرق قدمى بالدم الفاقع . استفقت جزعة ، وآهة مشاكسة تتلوى بصدرى . تبشر بأحداث مهولة لا بد قادمة .

ـ أكثر هولا مما نحن فيه . لا أظن . أنت تتوهمين .. ربما هذا من أثر الجوع . لا ألومك . الجوع والتعب .. ألعن ما يهدد البشر ..

ـ بل الخمول والبقاء هما ألعن ما يهدد البشر .. وأرجـوك لا تستـخـف برؤياى ..

ـ هذه ليست رؤيا ، انما كابوس مزعج .. لا يهم .. لقد كثرت الاسرار مما جعلنى أفكر ، والاجدر بى أن لا أتحرك من مكانى . كفى عناء ..

ـ لن أسمح لك بذلك .. هل سأبقى تائهة فى الخلاء وحيدة ؟

ـ ومن أنت حتى تسمحين لى أولا تسمحين . رفيقة سبيل . شريكة مغامرة فاشلة أودت بحياة الآخرين ، وستودى بحياتنا نحن ان لم نفكر فى الخلاص . كيف التقينا ؟ صدفة . فى طريق ما . جمعتنا الغابة . وألف بيننا الجنون . سخرية أقدار . عبث فى عبث . لقد كان نصيبى من الحياة بين يـدى . لـم أقتنع به . ١مرتنى أوهام معتوهة . سرت نحو المجهول . ولم أكن أدرى أنى سأفقد ما كنت أملك . كنت شبه سعيد لولا .

ـ لو كنت سعيدا لما تركت ديارك لتفر هاربا ، باحثا عن خيال غامض يحاصرك .. أنت لا تعرف ماذا تريد يا فتى ..

ـ نحن لا نحس بالسعادة الا لما نفتقدها . لم أشعر أنى كنت سعيدا حقا الا الآن . الآن فقط عرفت أنى فقدت كنزا ثمينا . فقدت راحة لا تعوض . لن

أشعر بالعطش والماء أمامى . ولن أجوع والرغيف بيدى ، انما فى فقدانهما صرخة على حاجتى اليهما .

ــ السعادة فى المجهول . فى ما نرقبه . فى ما نحلم به . لا فى ما تحصلنا عليه . أو فى ما نعيشه . تلك سعادة التعس المجرور من أنفه . عندما يكون أخرس الصدى وهو يتوهم أنه يشدو بأعذب الالحان . رأسه يناطح السحب .. وقدماه غائصتان فى الوحل .

ــ ألم تشعرى أنك كنت فى سعادة وافتقدتها . كنت تنعمين براحة وضاعت منك ..؟

ــ لم أكسب فى حياتى شيئا كى أفقده . أسفى على ما سيكون ، لا على ما كان ..

ــ أظنك بدأت رحلة الحياة من نهايتها . فاتك الفصل الاول من المسرحية . لا بد أن تقنعى بالفصل الاخير . أو أنت مرغمة الآن على مشاهدة الفصل الاخير نكسة حظ .. مسكينة أنت ..

ــ لم أخسر الكثير لعدم مشاهدتى الفصل الاول من هذه الرواية السمجة تأكد من هذا . كنت أود أن لا أشاهد هذه التمثيلية قط . ماكانت تغرينى . كل ما فيها تافه . والممثلون ما كان أحدهم فى مكانه . ولا من فهم دوره . أو حقيقة أمره . أنظر ، الشمس قد مالت الى المغيب . وبدأ الظلام يغزو الافق . قد ضيعنا يوما وفرصة . واكتسبنا خيبة وفشلا .. لكن لم لا تموت . أما فكرت يوما فى ذلك ؟ هذه أحسن نهاية لانسان لم يعد يعرف ماذا يفعل . واحتار بين التقهقر الى الخلف والركون الى الماضى .. أو العدو نحو سراب المستقبل ..

ــ حسبك هذرا . لن أموت . لا أريد أن أموت أشنع ابتكارات الطبيعة : الموت . هل تعرفين . سأبوح لك بالسر الذى دفعنى كى أزج بنفسى فى هذه المغامرة الفاشلة . كنت راضيا عن حياتى . فرحا . قانعا بوجودى . لم يكن داء الطموح قد نخر قلبى مثل الكثيرين . لكن حلما ما طوق أفكارى . وسمم عقلى . كنت أحلم بالخلود ولو أنى لم أشأ أن أحلم أبدا .. أود البقاء . لا أريد أن أفنى كالجميع . أذهب نحو نفسى النهاية الغاشمة . لم العذاب . والمقاومة . والتشرد ان كانت النهاية واحدة للجميع : الموت ..

لقد مات أبى وهو عريس أشهر . ولحقت به والدتى بعد سنة . وراح أخى التوأم وهو فى الشهر الثانى من العمر . راح ضحية حمى قضت عليه فى

ثلاث ساعات . وقبلا مات جدى وزوجته تضع أبى فى ليلة عاصفة .. مشؤومة الطالع . نزلت عليه صاعقة وهو متجه الى بيت قهرمانة الحى ليأتــى بهــا ، تساعد جدتى على الوضع . كان الموت بالمرصاد لعائلتى المنكودة .. يحفر تحت أقدامها خنادق الفناء . لم يتركها تنعم بالعيش الهادىء لحظة .

أنتزع الخلود عنوة هو مأربى ، الآلهة ستهبنى اياه .. ولكن .. لعنة قريتنا أن أهاليها يموتون سريعا . يتساقطون تباعا كأوراق الخريف الجافة لم أنس أبدا نبوءة تلك الغجرية المشروخة الشفتين . لقد قرأت فى كفى أنى سأذوى كزهرة عطشى قبل أن أتخطى الثلاثين. لم تحدد متى وكيف..؟. نكبة عائلتنا الموت قبل الثلاثين . وقد بدأت هذه اللعنة تتفشى فى القرية كلها . قرية الموت .. وأنا الآن لا يفصلنى عن الثلاثين سوى يوم واحد .. لذا لا داعى لمجاوزة الاحداث . اندثر وهمى . وسبقنى الواقع بالطعن .. أليس كذلك ؟

ـ خرافة طريفة ومسلية . لكنها مقرفة . لقد كنت من عائلة سعيدة . محظوظة . محبوبة من إله الموت . فماذا تريد أكثر ؟ أتغرك ترهات البقـاء . الحياة سلسلة لعنات تطوق أعناقنا . يوم نستطيع كسر هذه السلسلة ـ يكون لنا الانطلاق المنشود ..

لعنة عائلتنا أنهم لا يموتون . ومصيبة مدينتنا التشرد ، وكارثة البقاء ..

الموت هو نكهة الوجود وسر تجدده ، لولاه لما كان للحياة معنى . ولا للانسان رغبات يناضل للوصول اليها . انه الحرية المطلقة . الانطلاق من قمقم الزمن الذى نحن سجناء فيه رغما عنا . هو كسر لكل القيود . هروب من المألوف المضجر . من الجوع . من الفقر . من التعب . من السأم .. انه التحرر مـن المادة التى تسمم شرايين العالم . من الجسد الذى فرض على الانسان ليغرق فى قاذوراته . انه التحليق فى عالم الروح . عالم النقاء والطهر ، والبعد عن كل ما هو دنس ومبتذل . الخلود لا يكون الا خلف الموت . يبتدىء أول الرحلة من تحت الارض ، لا من فوقها . كل ما فوق الثرى فناء وعدم . لا شىء سيبقى ولا حتى الاحلام . أنا وأنت متضاربان فى مطالبنا . متناقضان فى رغباتنـا . أنا أهفو الى الموت . أقتحم الخلود من المنطلق الرحيب الذى افهمه واعرفه . وأنت تصبو الى الخلود وترمقه من الافق الضيق الذى تعيش فيــه ، أى رأى أرجح عقلا . وأكثر صوابا ..؟

ـ طبعا رأيى أنا . أيعقل أن تتعبى . وتتشردى وتزجى بنفسك فى هذه المغامرة المشؤومة من أجل الموت . اطمئنى لا داعى للآلهة أو زيارة المعبد . وفرى هذا الجهد . يمكن لك البقاء هنا معى . ستموتين رغما عنك . كما سأموت أنا ، وكما مات الجميع رغما عنهم .

ثم لو انتظرت قليلا فى مدينتك للحق بك المنون الى مضجعك دون عناء . كنت صائبا فى حدسى . أنت عابثة ، ومجنونة . منذ رأيتك عرفت ذلك .

ـ أيها المعتوه ألم أقل لك : إن الناس فى مدينتنا لا يموتون ، ومن يصبو الى الرحيل لا بد أن يتحايل ، ويفكر فى الامر بجدية ، وربما قضى الدهر دون أن يصل الى مبتغاه ..

ـ اذن ما أجمل الحياة فى مدينتك . هذه المدينة التى يخشاها الموت . آه لو أعرف كيف الوصول اليها . لو كنت من أهاليها . حتما هى الجنة الموعودة !

ـ لا تترك نفسك نهب الاوهام المخبولة . الناس لا يموتون فى مدينتى لانهم أموات . ماتوا وهم أحياء . ألم تسمع بمدينة الموتى الاحياء . انها مدينتى التى هربت منها قبل أن أدفن حية فى مقبرة التحنط .

ـ أنت مذهلة . تأكدى الآن سيتحقق الحلم . حلم الحرية . حلم الراحة المطلقة . والانطلاق اذ لن نقدر على مواصلة السير . ولا على العودة . سنختنق بحبال هذه الظلال . ولن نجد من يوارينا التراب . سيتحقق حلم . ويتحطم حلم . وسيلتقى الحلمان فى مقبرة الامانى الشهيدة .

لست الخاسرة على كل حال . أنت كاسبة فى كلا الامرين . وأنا الميت فى كلتا الحالتين . حاولت اغتيال الايام فاغتالتنى . وحاولت أنت مغالطة القدر فغالطك .

ـ لو وضع للبقاء قانون . لا يعيش المرء الا الى سن معينة . الى الثلاثين مثلا . يفعل ما يود أن يفعله قبل هذه السن . ينعم بالاعوام القليلة التى بين يديه ، ثم يرتحل سريعا قبل أن يجرعه السأم كؤوس الويل . ويأتى آخرون وآخرون ، والعجلة ، والعجلة الزمنية تدور لاتحمل فى مدارها غير القلوب الشابة . القلوب التى لم ينخرها اليأس ، ولم يمتص دمها بؤس السنين .

ـ لقد فعلت الطبيعة ما وافق مزاجها . وظل البشر من أول النشأة ثائرين ، ناقمين على حكمها القاسى . كل يهفو الى وضع ما يصبـو الى مـا لا يستطيـع تحقيقه . لكن لا شىء تغير . ولا أحسبه سيتغير .

أخيرا اقتربنا من النهاية . وسننعم معا بالراحة الكبرى . هذا ما بـقـى لنا . الحق الوحيد الذى اكتسبناه وسنتحصل عليه رغما عـن الاحـداث . احساس مبهم يقول لى : إنى لن ألمح نور الغد ..

ـ سعادة لا ينالها غير المحظوظين ..

ـ لا تسخرى منى ، الموقف لا يسمح بالسخرية . لو لفظت أنفاسى الليلة أتوارينني التراب . !؟ عدينى بذلك ..

ألا تجيبين ؟ الافضل أن نبقى معا نرقب الموت ، ما دام حلمك قد انتصر على رغبتى ..

ـ ليت ما تقوله حقيقة .. علمتنى الحياة أن لا أنتظر أن يتحقق أى حلم لى مهما كان .

....

الغيوم تزداد قتامة . السماء تحترق بالسحب السوداء . ومضة صاخبة من البرق تصفع عينيها . تبقى لحظة تتساءل فى أية ساعة هى من النهار . تأكدت مرة أخرى أنها فقدت زمام الاشياء . اجتازت السد الزمنى ربما هى الآن واقعة على عتبة العالم السرابى الذى لن تجده الا فى ما بعد النهاية .

تواصل الصعود بخطى مشحونة الآمال . يواجهها المعبد ، زوبعـة ظـلال غامضة ، متراقصة فى يم عتمة موحشة ، فى أحشائها تربض الحياة ، أو الموت . الراحة الابدية .. أو الشقاء السرمدى .

الجثة خلفها . تجذبها نحو القاع . ترجمها بلعنة مجهولة . الجثة الاخيرة فى مسيرة الضياع . قبل أن تتركها لمصيرها المحتوم ، أغرقت الجثة فى غلائل الاوراق الجافة . جعلت لها من أوراق الشجر كفنا . لم يعد يلمح منها غير نعلين ، ممزقين أضناهما السير تبزغ من أحداهما اصبع متورمة تخدش سحنة الكون بتهكم لاذع .

تحث الخطى نحو الفراغ . الفراغ حولها . أمامها . يجتاح أفكارها . يكحل مقلتيها . فراغ . فراغ حالك . قاتم .

المعبد كتلة خراب وأحجار مرصوصة تترقب من يزيح عنها شبكات الرتيلاء المعشّشة فى الزوايا المعفرة .

السكون يبتز حواسها . الصمت يلفها فى أسترته . الصمت الذى عاشت العمر تتمناه . هى .. والصمت . والوحدة . بعيدة عن كل الدنى . فوق صخرة مفتتة الارداف تجلس وعشرات العيون فى أعماقها تبكى دون دمع تنعى دنيا لئيمة لم ترضخ أبدا لسخف مغزاها .. تصلى لدنيا طافحة بالمنى ، ستبنى للخلود عرشا فوق طيب ثراها .

وقفت مرتعدة وصل مصفوع الذقن يهرول مسرعا تحت قدميها خوف مفاجىء يعتصرها . تتقدم مطعونة المشاعر . الغرفة الفسيحة تجذبها بعتمتها المغرية . تسير نحوها ورعود تخترق سماء أفكارها تقصفها بوحشية رعناء . لا تتخاذل تواصل التعثر . ما تكاد تضع قدما وسط الغرفة النصف متهدمة ، حتى تقف وقد انهار الوجود تحت قدميها مخنوق الانفاس .

جسم الآلهة مقطوع الى نصفين . مفتت القوائم . ملقى على الارض ، قد غاص فى بركة من الدم المتجمد . فوق الرأس المنكسر ، قد انتصب بكل اباء ثعبان ضخم الجسم قد التوى حول نفسه فى دائرة مرعبة السواد . عيناه تشعان ببريق فتاك نهب ما بقى من قواها المحتضرة ، تكتم شهقة فزعة وهى ترتمى على الحائط تطارد عزائمها الشاردة . ترمق التمثال المتحطم بهلع وذل متزاوجين . تجيل بصرها فى ما حولها . الجدران مطلية برسومات دموية لوحوش كاسرة ، فاتحة أفواهها منتظرة القرابين الآدمية .

فوق الثرى المحفر تكدست هياكل منخورة العظام كانت فى يوم ما لبشر دفع بهم السأم والخبل لمسيرة جنونية ، فراحوا للدهر والضياع ضحية .

تظل ترقب ما تلمحه . تجاهل فى فك الرموز الغامضة . تستكين لحظة فوق صدر الصمت ، تنشد راحة حائرة بين الرحيل والبقاء .

الثعبان يلاحق نظراتها بعينين نفاذتين . تتابع انعكاستهما بغل ، أصم . تكاد تغرق وسط ضباب السخرية الراكنة فى أعماقهما . سكينة مؤلمة ..

تتمركز بنفسها . سكينة الموت ، أم فاجعة العودة الى الحياة . لا تدرى . تضحك . تغوص فى بئر جافة من الضحك الملوث باليأس والغضب .

يبتسم الثعبان . تضج عيناه بضحكة حزينة ، كئيبة الرعب تقاسمها غبطتها المباغتة . تعيد اليه الابتسامة . شعور ما يقربهما من بعضهما . يدفعهما عمدا اليه . فجأة تحس أنها ما جاءت الا من أجله .. ربما حتما هى ما جاءت الا من أجله !!

تقترب . ترتمى تحت قدمى الآلهة المتحطمة . الحلقة الحالكة تنحل . يزحف الثعبان نحوها . يتكور قربها . يعود يلتهمها بنظرات نهمة . تكور قبضتها تطرد طيفا لا مرئيا يحاول أن يجذبها الى الخلف . تضحك ضحكة أخيرة . تلقى بنفسها فى حضن الثعبان الرابض قبالتها فى اطمئنان جسور . تزداد ابتسامته اتساعا واشراقا .

أصوات مجهولة تنبع من خلف الجدران المزخرفة بنقوشات دامية ، تسيح فى شدو موسيقى أثيرية .

تتساءل ثانية ، حقا هل ابتسم الثعبان لها ؟ هل ..؟

جسد لزج يطوقها فى حنو مدمر وهمسات من أفواه خفية تتماوج مع اللحن تحكى قصة ثعبان ابتسم فكان الخلود ، وكانت الحياة الحق فى ما وراء عذابات الحياة .

ثم لا شىء . صمت . صمت .. وظلام دامس يبشر بميلاد ليل جديد فى عالم قاتم الرؤى .

حياة بن الشيخ

الإشراقات (*)

شعر : رانبو
تعريب : محسن بنحميده

30 – رأس المرتفع

الفَجرُ الذَّهبِيّ وَالأُمسيَةُ المُقشَعِرَّةُ
يجِدان مَركَبَنا ذا الشِّراعَيْنِ المُربَّعَيْنِ
عَرْضَ البَحْرِ قُبالَةَ تِلْكَ الدَّارَةِ
ومُلْحَقاتِها المُكَوِّنَةِ لِرأْسٍ مُرْتَفِعٍ
فِي مساحَةِ الإِيبِيرِ و البِلُوبُونِيز
أَوْ جَزيرَةِ اليَابانِ الكُبْرى أَوْ جَزيرَةِ العَرَبِ
هَياكِلُ بُطُولِيَّةٌ يُنِيرُها دُخُولُ المَذاهِبِ
مَناظِرُ شاسِعَةٌ لِلدِّفاعِ عَنْ السَّواحِلِ العَصْرِيَّةِ
كُثْبانٌ رِمالٍ تُزَيِّنُها زُهُورٌ دافِئَةٌ
وَأَعْيادٌ لِبَاخُوسَ

قَنَواتٌ لِقَرْطاجَ عَظِيمَةٌ
وَاخْتِزاناتٌ لِبُنْدُقِيَّةَ مُريبَةٍ
انْفِجاراتٌ رَخِيصَةٌ لِبُرْكانِ الإِتْنَا
تَصَدُّعاتٌ مِنْ زُهُورٍ

(*) تابع لما نشر فى مجلة الفكر – العدد 10 – جويلية 1979 – س 24 .

وَمِنْ مِياهِ جِبالٍ ثَلْجِيَّةٍ
مَغَاسِلُ يُحِيطُهَا حَوَرُ أَلْمَانِيَا
تِلاعُ حَدَائِقَ غَرِيبَةٍ
تَنْحَنِي مِنْهَا رُؤُوس أَشْجَارٍ يَابَانِيَّةٍ
وَالوَاجِهَاتُ المُسْتَدِيرَةُ لِمَبَانِي الرَّوِيْلِ والقُرَانْ
مِنْ مَدِينَةِ سكَارْبُرُو أَوْ مَدِينَةِ برُوكْلِين
وَسِكَكُهَا الحَدِيدِيَّةُ تُجَانِبُ وتَحْفِرُ وَتُشْرِفُ عَلَى
اسْتِعْدَادَاتِ ذَلِكَ الفُنْدُق
المُخْتَارَةِ مِنْ
آنَقِ وَأَضْخَمِ مَبَانِي إِيطَالِيَا
وأميركا وآسِيَا
الذِي انْفَتَحَتْ نَوَافِذُهُ وَسُطُوحُهُ
– المَلأَى الآنَ بِغَنَى الإِضَاءَاتِ والأَشْرِبَةِ والنَّسَمَاتِ –
إِلَى عُقُولِ المُسَافِرِينَ والنُّبَلاءِ
الذِينَ يَسْمَحُونَ طِيلَةَ سَاعَاتِ النَّهَارِ
لِجَمِيعِ رَقَصَاتِ السَّوَاحِلِ
وَحَتَّى لِرَدَّاتِ أَوْدِيَةِ الفَنِّ الجَمِيلَةِ
بِزَخْرَفَةِ وَاجِهَاتِ قَصْرِ المُرْتَفَعِ
زَخْرَفَةً عَجِيبَةً

31 – مشاهد

إِنَّ المَهْزَلَةَ القَدِيمَةَ تُوَاصِلُ ائْتِلافَاتِهَا
وَتَفْرِقُ عُذْرِيَّاتِهَا

شَوَارِعَ مِنْ مَنَاصِبِ المَسَارِحِ
رَصِيفٌ خَشَبِيّ فِي حَقْلٍ صَخْرِيّ
مُمْتَدّ مِنْ أدْنَاهُ إلى أقْصَاهُ
يَسْعَى الجُمْهُورُ تَحْتَ أشْجَارِهِ المُجَرّدَةِ
فِي أرْوِقَةٍ مِنْ الشّفِّ الأسْوَدِ
اقْتِفَاءً لِخُطَى المُتَنَزّهِينَ ذَوِي المَصَابِيحِ وَالأوْرَاقِ
أطْيَارٌ مُمَثّلُونَ يَنْقَضّونَ عَلَى صَنْدَلِ بِنَاءٍ
يُحَرّكُهُ أرْخَبِيلٌ تُغَشّيهِ زَوَارِقُ المُشَاهِدِينَ
مَشَاهِدُ غِنَائِيّةٌ يُرَافِقُهَا المِزْمَارُ وَالطّبْلُ
تَنْحَنِي فِي خَلَوَاتٍ مُعَدّةٍ عَلَى السّقُوفِ
حَوْلَ مَجَالِسِ النّوَادِي العَصْرِيّةِ
أوْ قَاعَاتِ الشّرْقِ العَتِيقِ
المَشَاهِدُ السّحْرِيّةُ تَسْعَى مِنْ أعْلَى
مَدْرَجٍ تُتَوّجُهُ أدْغَالٌ
أوْ تَضْطَرِبُ وَتُنَغّمُ لِلْبِيُوسِيّينَ
فِي ظِلٍّ
عَلَى زَاوِيَةِ الزّرّاعَاتِ
وَالمَهْزَلَةُ الغِنَائِيّةُ تَنْقَسِمُ عَلَى رُكْحِنَا
عِنْدَ زَاوِيَةِ التِقَاءِ عَشْرِ فَوَاصِلَ قَائِمَةٍ
بِقَاعَةِ النّيرَانِ

32 ـ مسـاء تـاريخـي

فِي أيّ مَسَاءٍ مَثَلاً يَكُونُ فِيهِ السّائِحُ
مُنْزَوِيًا عَنْ فَظَائِحِنَا الإقْتِصَادِيّةِ

فَيَبْدُ سَيِّد تُحَرِّكُ مِعْزَفَ المُرُوج
وَلَعِبُ الوَرَقِ مُتَوَاصِل فِي قَاعِ البِرْكَةِ
تِلْكَ المِرْآةِ المُذَكَّرَة بِالمَلَكَاتِ وَالغَادَاتِ
وَلَدَيْنَا القِدِّيسَاتُ وَالقِنَاعَاتُ
وَخُيُوطُ التَّنَاسُقِ النَّغَمِيِّ
وَالتَّلَاوِينُ الأُسْطُورِيَّةُ عَلَى المَغِيب
إِنَّهُ يَقْشَعِرُّ عِنْدَ انْطِلَاقِ مَحَافِلِ الصَّيْد
وَمُرُورِ العِصَابَاتِ
وَالمَهْزَلَةُ تَقْطُرُ عَلَى مَصَاطِبِ الخَضِير
وَارْتِبَاكُ الفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاء
عَلَى تِلْكَ المُسْتَوَيَاتِ الغَبِيَّة
إِنَّ أَلْمَانِيَا لِنَظْرَتِهَا الإِسْتِعْبَادِيَّة
لَتَتَشَيَّدُ نَحْوَ أَقْمَار
وَالصَّحَارِي التَّتَرِيَّةُ تَسْتَنِير
وَالثَّوْرَاتُ القَدِيمَةُ تَعِجُّ
فِي قَلْبِ الامْبَرَاطُورِيَّة السَّمَاوِيَّة
وَمِنْ خِلَالِ المَدَارِجِ وَالمُتَّكَآتِ الصَّخْرِيَّة
عَالَمٌ صَغِيرٌ بَاهِتٌ سَهْلٌ
مِنْ إِفْرِيقِيَا وَمَغَارِبَ

سَيَتَشَيَّدُ
ثُمَّ غِنَائِيَّةُ بِحَارٍ وَ لَيَالٍ مَعْرُوفَة
كِيمِيَاءٌ تَافِهَةٌ وَمَغَانٍ مُسْتَحِيلَةٌ
نَتَنَفَّسُ السِّحْرَ البُرْجوازِيَّ فِي جَمِيعِ الأَمَاكِن

التِي تُرْسِي بِنَافِيهَا الحقِيبَةُ
فَأَبْسَطُ الفِيزِيِّينَ يُدْرِكُ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ
الإِسْتِسْلاَمُ إلى ذَلِكَ الجَوِّ الشَّخْصِيِّ
ذَلِكَ الضَّبَابِ مِنَ النَّدَامَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ
التِي مُجَرَّدُ الإِطِّلاَعِ عَلَيْهَا
هَوَ - مُسَبَّقًا - غَمّ
لاَ
فَحِينُ المُعَرَّقَةِ وَالبِحَارِ المَسْلُوبَةِ
وَالإِلْتِهَابَاتِ التَّحْتِيَّةِ وَالكَوْكَبِ المَرْفُوعِ
حِينُ الإِبَادَاتِ المَنْطِقِيَّةِ
تِلْكَ الآيَاتُ المَشْكُوكُ فِي جِدِيَّةِ ذِكْرِهَا
فِي التَّوْرَاةِ وَالأَلْوَاحِ
وَالتِي سَوْفَ يُتَاحُ لِلْكَائِنِ العَاقِلِ
أَنْ يُرَاقِبَهَا
و مَعَ ذَلِكَ
سَوْفَ لا يَكُونُ مَظْهَرٌ أُسْطُورِيّ

(يتبع)

هـــذيان ..

قصة : محمد الشمنوري

قــال الــراوى :

إن الاسطورة لعبة ترعب خيال الصغار وتدغدغ عقولهـم ، فيهربـون الـى الكبار ، واذا بجنان اترعب حقيقة تقوم على خيال الصغار !..

قال العبد يحدث شهريار :

ـ عمدة القرية فتح متجرا .. شهادة فقر للبيع بالمزاد العلنى !..

استلقت جارية شهرزاد على ظهرها فوق سرير الملك وقالت :

ـ سوق الجنس راكدة هذه الايام ، انى استسمحك هذا السرير !..

تمرد دولار فى جيب رجل أعمال مرموق وتوعد قائلا :

ـ أختار رحلتى هذه المرة الى ما فوق القمر !..

تمدد سجين فوق فراشه وهش فى وجه السجان قائلا :

ـ السجن اقامة مجانية اشتهيتها وما اشتهيت غيرها !..

ارتبك أعرابى وركع خاشعا أمام موكب رجل سام :

ـ أرأيت يا سيدى لقد سرقت هذا البستـان من الجنـة وقد بعت لأجلـه شبابى وشباب زوجتى وطفولة صغارى ...

قال شحاذ يتذمر لزوجته الضريرة :

ـ العطاء موجود والقوت مفقود .. والمشكلة تركض هاربة من الحل !..

قـال الـراوى :

عبد مجه الاعتقال .. وجارية تحتدم فى أغوارها أنها ..

ملك غيور وسيد أنهكه الدولار ..

سجين سعيد وسجان عذبه الانتظار ..

لفظ العبد بعد أن يئس من شراء شهادة الفقر :

ـ كأنى أرى أن الفقير هو فقير الطريق لا فقير الجيوب !..

ارتعشت شفتا الملك غضبا وزمجر :

ـ لقد كفر الخلق بالذهب ، وأنا رب الذهب !..

تذمرت جارية شهرزاد بعد أن أعياها الانتظار :

ـ قد تموت فى اغوارى الطمأنينة ويجف صباى باكرا !..

تنهدت شهرزاد وقالت :

ـ قد تكره النفوس وهى تشتهى ، وقد يزهر فينا الخوف وهو يجف .. هذا زمن يستبدل فيه الرعب رعبا وعاقبة المطاف ذبذبة ليس لها مستقر !..

تزندق الدولار واضطرب فى جيب رجل الاعمال متوعدا منذرا ثانية

ـ اشعر ان ـ ما وراء القمر ـ جفاف لا يعجبنى ، وجفاف أرضنا يخفى تحته جنة « دولارية » .. لذا أريد أن أغوص فى أعماقها بحثا عن جنتى ..

رفسه رجل الاعمال فى جيبه ثائرا :

ـ لقد برح بى نعيقك وجعل طمأنينتى موثوقة الى فجيعة « دولارية »

استعذب السجين صوت المزلاج وهو يضطرب بين أيدى السجان الغاضبة

ـ اذا أخبرتنى على الخروج فان عودتى ستكون على يديك .. وثمن حياتك رخيص بالنسبة لسرير يأوينى ورغيف يأتينى مجانا ..

تراجع السجان حائرا :

ـ أخشى أن تقوم الرذيلة على انقاض الفضيلة ، وتصبح الرذيلة فضيلة والفضيلة رذيلة ..

ابتسم الاعرابى للرجل السامى وحاشيته :

ـ كما ترون البستان مزهر واشجاره قائمة خضراء .. لكن العطاء ذاك من شأن البستان ..

غمز الرجل السامى مقربه ولفظ :

ـ أنت فرد ونحن مجموعة .. بودى لو أملك هذا البستان فالعطاء يكون من الفرد الى المجموعة !..

تذمر الشحاذ وقال لزوجته كاسفا :

ـ اعيانى المطاف وكثرة الدوران ، جيوبى ثقيلة وبطنى فارغ ..

تنهدت الزوجة الضريرة وقالت :

ـ من يدور فعلى ذاته ومن يطوف فعلى مرآة ذاته .. وأنت ذهبت لتدور فتهت فى الطوفان .. وأردت أن تعايش الطوفان فعدت الى الدوران .. وسنة الحياة هذا وذاك ..

قـال الـراوى :

الزمن فقير ، والفقير من ركب الزمن الى بلاد ينعدم فيها وزن الحقيقـة .. ورماد من طمع فى لوعة الاجمار !..

جاع شهريار وتخمة الذهب مفتاح ضائع وسط ثورة رملية والعبد واقف أعيته زمرة الانتظار .. جفاف فى حلقه وجفاف فى صدره .. وجفاف فى يأس شهريار ..

قال العبـد :

ـ أيها الملك .. سمعت ان الجوع هو جوع النفس الى مرادهـا ، وجـوع الارادة الى مريدها .. وارادتك تكون اذا حلت ارادتـى وتنتهـى اذا انتهـت ارادتى !..

زمجر الملك غاضبا ودق الارض دقا :

ـ انى أملك جسدك وروحك منذ امتلكتك .. أين هى ارادتك .. أن تكون حرا .. سيدا .. أميرا .. أو شهريارا ان شئت .. انى أشتم رائحة النهاية أيها العبد !..

قـال العبـد :

والحـل يا مولاى ؟..

* * *

رقصت الجارية وتحسست مواطن الروعة فى جسدها ، ثم ركضـت الـى شهرزاد وأخذت تدور حولها نشوى سكرى .. ثم انحنت أمامهـا وداعبتهـا بصوت كله اغراء ..

ـ سيدتى لقد رأيت حلما .. رأيت يقظتى فى منامى .. رأيت نفسى فوق هذا السرير بالذات أضاجع الملك ، وشربت النعيم وأنا أتلوى بين ذراعيه .. فكانت رغبتى رغم استحالتها ..

سخرت منها شهرزاد وحدثتها قائلة :

زماننا زمن يقوم فيه التمنى على أنقاض هزيمة المعاش . .فاذا الرغبة حلم يقوم برغبة ثانية أشد عملا من الاولى . تذمرت الجارية .. ثم اضطربت وقالت :

ـ الحل يا سيدتي !..

* * *

تعب الدولار من الركض .. وأعياه البحث عن جنته « الدولارية » .. هش فى وجه صاحبه المنهوك يستنهضه :

ـ سمعت ان السوق تشتعل هذه الايام ، وأنا اشتاق الى لعبة أكبر من النار .. ما رأيك فى جولة !..

مسح رجل الاعمال عرق جبهته ، ولفظ الآه تلو الآه ثم انفجر :

ـ أنت نار ، وعيدك نار ، والسوق نار ، فأى نار أختارها ! أنت دولار تنام فوق دولار ، والسوق ابن الدولار .. هل أشترى دولارا أم أبيع دولارا .. والقوت اين القوت يا رب الدولار !..

انتكس الدولار ثم تساءل :

ـ والحل كيف الحل ؟..

* * *

تثاءب السجين ثم ابتسم فى لذة على نعيم السجن ، جنة مقنعة بجدار سميك ..

قال يداعب السجان :

ـ ان العطاء درجات موكولة لحركية اليدين والرأس ، وسنة البشر عايشت القبول وعادت العطاء .. والعطاء اليوم مشنوق على صليب الخطيئة .. وأنا اشتريت هذا النعيم بالذنب ، فما أسعدنى مذنبا ، وما أشقانى مصيبا !..

انفجر السجان بعد ان أعيته الحيلة :

ـ أسفى على من اشترى القناعة فى جيد حسناء ليل جائعة .. ان العطاء بالرأى قائم فى ذوات من مسح الجوع فمسحه النائمون أبدا فى وهاد الخطايا.. أخطأت فنلت عطاء لكن عطاء السجن اشترته الايدى الطويلة ..

احتار السجين ثم تساءل :

ـ انى اشتم رائحة كريهة فى كلامك .. فهل تدركنى بالحل ؟..

★ ★ ★

انتحى الاعرابى مكانا مهجورا فى بستانه الذى لحسه جوع الفلس .. يبكى بقايا من بقاياه ، ساعد جف وشباب ضاع .. زوجة تآكل عمرها وبنيـن قـد تداعت فى صباهم بكارة الرحم .. ثم انتحب وعيناه تتآكل على صفحة وجه الرجل السامى :

ـ كنت أعتقد أن العطاء محمود من الفرد الى المجمـوعة .. ولما نلت منى وأخذت بستانى اكتشفت ان العطاء ذميمة يسترحم فيها المذموم ذميمه .. فاذا بى أدور فى حلقة مفرغة بلا هوية أسترحم اكتافك الحديدية !..

تنفس الرجل السامى الصعداء ثم تلوى وتأوه :

ـ امتلكتك وامتلكت بستانك ، فاذا بى أملك الفراغ .. أحس لو امتلكت الارض كلها ما ارتويت وما جفت أغوارى من النباح .. انى أسعى مبهـورا .. محبوبا ، ولكن نباح الكلاب يسعى فى صوتى ، وسيف السفاح يتحرك فـى ذراعى .. والنهم يشتد ويتحول الى جمرة تلتهم أعماقى ..

أنت تخافنى وتشكونى ، وأنا افترسك وأشكوك ، وداؤنا واحد .. وعاقبة المطاف وخيمة ..

انزعج الاعرابى ثم تساءل :

ـ والحل أيها الأمير أين نجده ؟..

★ ★ ★

عاد الشحاذ الى بيته ، ظلام فى عينيه وظلام فى رأسه وظلام فى بطنـه .. أعياه المطاف ودوخه الدوران .. تداعى فوق فراشه وتأمل زوجته الضريرة ثم تألم :

ـ لقد نهرنى صبى لما سألته شيئا مما يلتهمه ، وقال : أمى ذكية ، وأختى شهية .. وأبى خمارة تأخذه وخمارة تأويه .. أبى يكـرهنى لاننى أحـب أمى الذكية ، وأختى الشهية .. من فى سنى يحتاج الى صوت العصافير فى كـل همسة يستمعها .. لا صوت الذئاب وأنياب الغول .. ولست ابن السلطان فى خرافة ابن السلطان والغول وسمكة برية !..

ابتسمت الزوجة فى مرارة ثم قالت :

ـ المعيان يا زوجى كثيرون فأنا ضريرة .. تخدعنى عيناى لما توهمنى بأن جولتك اليومية باردة .. وأنت ضرير البطن لا تشبع من ألف رغيف.. وغيرك

ضرير يجهل موضع ساقه المرفوعة .. والضرير ضرير الصدر والرأس لا ضرير العينين !.. والنهاية ضربة عنترية قد تصلنى أنا المحبوسة فى ديجور مهجور !..

تململ زوجها ثم تساءل :

ـ نهاية سليمة فى سيف السفاح ،، والحل كيف الحل !..

★ ★ ★

قال الراوى :

اشتد الحر وسال العرق أنهارا من سيف السفاح !.

واشتهت النساء سيف السفاح !.

وطالت الألسنة تلحس سيف السفاح !..

وجفت الشفاه حمراء جرداء تبكى سيف السفاح !..

قال الراوى :

فى ساحة تذكرنا بزمن السفاح .. امتلأ البهو بالشاكين ..

قاض يحمل عيون السندباد ..

عبد وملك وتل من ذهب ملون ..

جارية « شهرزادية » وسيد موثوق الى دولار فى حبال « دولارية »

سجين وسجان وخطيئة قائمة فى برج أحول ..

امير يشكو التخمة وأعرابى يأنس بشحاذ جائع !..

هشوا وماجوا ، تهرجوا وماجوا .. وخاف القاضى ..

قالوا فى صوت واحد :

ـ قضيتنا واحدة .. نسألك حلا واحدا ..

خاف القاضى .. وخافت ساحة القاضى .. قال :

ـ ما حاجتكم ..

قال الشحاذ :

ـ نقودى كثيرة .. ولكنى أموت .. أين القوت ؟..

قاطعه رجل الاعمال :

ـ دولار فوق دولار .. ونهايتى على وجه دولار !..

اسأل ان شئت هذا الدولار ؟..

تدخل الاعرابي ببراءة :

ـ ذا الداء يا سيدى .. هل تشترينى برغيف ؟..

انفجر رجل الاعمال :

ـ تعال سأشتريك بثمن ألف رغيف ؟..

ابتسمت جارية شهرزاد وهمست يائسة :

ـ الداء عظيم الشأن .. ودائى أعظم !.. الآن أدركت لمـاذا انتهت وليمـة السرير!..

دق شهريار الارض بصولجانه بعد ان كشر لشهرزاده :

ـ أيها القاضى هل تشترى هذا الصولجان ؟.. نصف رغيف يكفينى !..

خاف القاضى ، وهم بالهروب ، قال بعد ان شرب أنفاس الشاكين :

ـ اسمحو لى أيها الجائعون الخائفون الهاربون ..

ليلكم واحد يكتمل ويكتمل .. يتمخض فينجب فجرا أعمى .. ليلكم وفجركم واحـد .. ذا الحل !...

انزعجوا وما انزعجوا ..

تراشقت عيونهم « مغبونة » .. وذابت عيونهم فى التراب تبكى ترابا ضاع ساعة المخـاض !..

قـال الـراوى :

كانوا فكنت !. جاءوا .. فذبت !..

شهرزادنا واحـدة .. جـاءت :

مسمولة العينين جاءت ..

مذبوحة الشفتين كـانت ..

مفقوءة النهدين جادت بثدييها !..

شهرزاد نحن .. والدولار نحن .. سجين وسجان نحن !..

وسراب يركض خلف سراب نحن !..

محمد الشمتـورى

الألم يرحل في رأسي حتى النخاع!

شعر: كمال قداوين

وَ يأتي الزمانُ علينا ...
تمرّ السنينَ عجافا، وتمضي جزافا ...
وتُخصبُ جدبُ المفازاتُ بعد المخاض العسير قتادا ودفلى ..
وزمزمُ هذا المساء تزخ شواظا
فمن أيّ بئرٍ حجيجُنا هذي المواسم يسقُون أفواههمْ
وأي الفجاج يشقون عند الطواف ..؟
وكلّ الدروب تُعسعسُ فيها صعالكة الليل ..
فيها تسمّر قلبُ الرعودْ ..
توغّل زحف الكتائب حتى ارتجاج السدودْ ...
وحتى نهاية تلك الأعاصير ترقدُ أجسادُ موتى،
ولا أحد اليوم يرجُمُ تلك البغايا،
ولا منْ تصدى لهدمِ المواخير،
لا منْ تزعّمَ قذفَ كلاب اللصوص بسيْل الحجارهْ !..

* * *

وعبر انفلات الزمانِ .. تعاقُب سيل الدقائق، فيضِ الكؤوس، صُراخ المذابحِ ... طاحونة الحزن، نحن نصيح

بملْءِ الحناجر : إنَّا خُلِقنا لِتَحْيَا جميعا على الحبّ أصواتنا ،
وتُبْنى على العدل أنقاضُنَا ..
ولكنْ قبائل عدنان ، قحطان ، في حيّنا تستبيحُ دِمَانَا ...
ويُمضي الغفاريِ صكّ السلام ،
فيرفضه الرّعد والبرق ، حتى تزلزل شُمّ الجبال الرّواسي .
وتنذر بالعاصفهْ !...
يردّد ذاك الفراغ الكبير ..،
صدانا الكسيرْ ،
وغمغمةَ القلْبِ تذْوي ، تذوبْ ،...
يبعثرها الموج عبر المرافىء ،.
أيُحبسُ يا صاحبيَّ جميلُ الكلام .
ويُوأدُ بين الشّفاهِ ؟..
وأدغال تلك البراري ترفرفُ فيها الخفافيش جذلى ،
وترقص نشوى ..،
وتربض فيها الكواسر ترقب أكل اللّحوم .. خروج الأرانب
من مخبىء القش ... من سلّة التبن .. من كلّ فج وصوب ..،
عَزيزٌ عَلى بلبل صادح في رباها ، يسافر نحو الجنوب ،
وفي موسم الخير والحبّ والحنطة العربيه ،
يفارق خضر السّهول .. ودفق العيون .. وغضّ السّنابل
والتّرْبَة الذّهَبيَّهْ !..
وعن لحظةِ اليُتْمِ والتّيه بين الوجود وبين العَدَمْ ،!
فلا تسألا صاحبَيّ .. تُرى ما اعْتراني ..؟
عَرّاني ذهولٌ ...

غدوتُ غَـريبا بِـدَار المَناحَـات …
بِتّ وفي أضلُعِي ألمٌ يَنخُرُ الصَّدرَ … يَستنزِفُ العُمرَ …
يَرحَلُ في الرّأسِ حتّى النُخَاعْ .،
وفي خارِجِ البَيتِ تزأرُ هُوجُ الرِّياحِ … تُزمجِرُ غضبى ..،
رقَدْتُ وفي أُذُنيَّ صِيَاحُ المَلايِينِ … شَكوَى المَسَاكِينِ ..
يُلْقِي بِهَا زَفْرةً راجِفَه !
فتَسْرِي بِها رعشةٌ خَائِفَه …
ظَمِئتْ اليكَ دِماءَ المَلاعِينِ ، تَاقتْ لكَ التُّربةُ الطاهِرَه ،
فهَلْ مِنْ صَوَاعِقَ تأتِي ..،
تَكُونُ لَكَ النَّاسِفَه ؟!
أيَنتَحِرُ الضَّوءُ في غُرفتي ؟..
وَ تَهجُرُني رَائِعَاتُ الأمَانِي
وتَرحَلُ عَنّي ،…
لقَدْ جَفَّ زيتُكَ مِصْباحِيَ الآنَ … أشعُرُ أنّي أمُوتْ ..
وأختَنِقُ اليَومَ بالرّغمِ مِنّي ..،
وهَذا فُؤادِي أيَا صَاحِبَيَّ ألاَ تَنظُرا كيفَ ضَاقَ الفُؤادُ
بِهذا السُّكُوتْ !
وَ كَيفَ تَرَدّى شَقِيّا …
فَلاَ تَعْجَبَا إذْ يَمُوتْ !
هُوَ الآنَ تَاهَ بِزَحْمَةِ هَذَا الفَرَاغِ المُرِيبْ ،
تَوغَّلَ حيثُ فِجَاجِ الغُرُوبْ
فقَدْ حَاصرَتْهُ الأعَاصِيرُ حتّى عَرَاهُ الشُّحُوبْ
وغطّتْ مَدَاهُ رُؤى زائِفَه ،

أَلاَ تَذْكُرَا صَاحِبَيَّ زَمَانَ الْتَقَيْنَا علىَ دَفَّةِ العَاصِفَهْ ؟!
تَمَلْمَلَ فِينَا الشُّعُورَ الجَدِيبْ

وسَادَتْ بِأرْجَائِنَا رَعْشَةٌ رَاجِفَهْ
جَذَبْنَا المَجَاذِيفَ عَلَّه تُرْسِي بِنَا فِي شُطُوطِ
الشعَاعَاتِ وَ النُّورِ ...

لَكِنْ نَزَلْنَا بِأَرْضِ الظَّلاَمِ ... بِوَادِي الأَفَاعِي...
عَبَرْنَا المَدَى ، الجُزُرَ النَّائِيَهْ ...

كَسَرْنَا لَهَا بَيْضَةَ الرّخّ .. يَا وَيْلَنَا مِنْ وَخِيمِ العِقَابْ ..،
وَ يَا وَيْلَنَا مِنْ ضَبَابِ الضَّبَابْ !...
وَلَكِنْ بِرَغْمِ العَذَابْ

بِرَغْمِ رُكَامِ التَّضَارِيسِ ، رَغْمَ امْتِدَادِ المتَارِيسِ ،
رَغْمَ انْعِدَامِ المَسَافَاتِ مَا بَيْنَنَا ...
بِرَغْمِ انْهِيَالِ الصُّرَاخَاتِ إِنَّا جَمِيعاً سَنَعْبُرُ
جِسْرَ الصِّعَابْ ،
نُقَاوِمُ حَتَّى الصِّرَاعْ ..
وَمَهْمَا تَنَأَيْنَا فلا .. لنْ نَقُولَ الوَدَاعْ ..،

الوَدَاعَ !

كمال قداوين

البَطل اليَساري في الرواية العَربيّة المُعاصرة

بقلم : المنصف وناس

ثمة حقيقة من الحقائق لابد من مراعاتها هي أن الرواية العربية في عمقها المضموني تصلح أن تكون مؤشرا من مؤشرات تتبع حركية المجتمع العربي وادراك التهيكلات المتعاقبة داخل تركيبته الانتاجية والاجتماعية اذا ما وضعنا في الاعتبار نمطية الممارسات والسلوكيات التي يحملها البطل في علاقاته وصلاته والتي تشكل دلاليا ترسانة القيم والمثل ، وفي نهاية المطاف الايديولوجيا السائدة في هذا المجتمع أو ذاك .

ولئن كان الوصول الى استقراء علمي تتصدره الموضوعية للبطل أمرا يبدو صعبا بحكم تكثف المتغيرات وتنوع التداخلات داخل الظاهرة فان الاتفاق على اعتبار النموذج البطولي في جوهره ليس سوى افراز لمنظومات من العلاقات الانتاجية والترسبات الفكرية القائمة ، يبدو العلامة البارزة على طريق الاهتداء والفهم السوي .. وليس ضربا من الدعاية المسيسة أو التهويش أن نعتبر الرواية العربية محملا ارتكزت عليه كل سلبيات الواقع العربي » واستوعبت التناقضات والاتجاهات المتضاربة في جدلية أثرت مضمونا وشكلا الخط التصاعدي والمتنامي للرواية . وهكذا تكون وتيرة الاحداث وكثافة الصراعات في مجتمع معين هي التي تفرز الرواية ، ومن ثم تكاثرت الآراء معتبرة المدينة أخصب الارضيات وأكثرها تفتحا للخلق الروائي ، فيفسرون كل الابداعات بالحركية الاجتماعية والاقتصادية .

ولا يبدو ذلك غريبا اذا ما كشفنا القناع عن طبيعة التفاعل القائم والمتجذر بين البطل والمجتمع ، وما دام يطلع من رحم المجتمع ليكون انعكاسا اجتماعيا وفيا ، لذلك توجب التعمق في البنية الاجتماعية وكنه العلاقات الانتاجية والتداخلات الطبقية .

وما نعنيه عادة بكلمة « التفاعل » ليس التعامل الايجابي في الاتجاه العمودي ، بل أيضا التنكر للقيم والتمرد عليها ورفضها رفضا مطلقا (عيسى الدباغ في السمان والخريف) .. واذا ما اقتنعنا بأن البنية الاقتصادية هي القاعدة التي تنطلق منها كل التفرعات الاجتماعية والايديولوجية ،، لتتكامل فيما بينها مشكلة الجدلية التاريخية : جدلية البنية الفوقية والبنية التحتية التي تحدد كافة العلاقات الاخرى المميزة .

ولقد كتب ماركس في المبحث الثالث عن فيورباخ : « ان المذهب المادي الذي يقول بأن الناس هم نتاج للظروف والتنشئة ،، يغفل ان الناس هم الـذين يغيرون الظروف ، وان كان هذا لا ينفي أن وضع الانسان الاجتماعي هو مصدر آلامه وآماله » (1)

ـ فهل استطاعت الرواية العربية استيعاب الواقع المعاش بديناميته وانضاجاته ،، وافراز أنموذج البطل اليساري المؤمن بمبادىء سامية محدد المواقف الرؤيوية من الظروف السياسية والاجتماعية مما يجعله محاربا ومطاردا باسم دعاوى دينية رجعية وترهات متهافتة فارغة المضمون ؟؟

ذلك ما سنحاول تبين خطوطه واستكشافه من خلال مجموعة من الروايات العربية التي ظهرت على فترات تاريخية متباعدة حاملة في مضامينها رياح التغيير ومختلف التطورات على شتى الاصعدة والمحاور ، لان معرفة قسمات وملامح الابطال الذين أفرزتهم الرواية العربية تساعد على الاقتراب من الهدف المرسوم وبداية النقد الصحيح ... ولا شك أن الرواية تحمل تجليات خصبة وتنويعات فكرية هامة ونفسا اثرائيا داخل الساحة الادبية العربية بحكم ما تتيحه طبيعتها الفنية من امكانات يعجز عنها الشعر أو حتى المقال الصحفي العادي ،، لتصبح وثيقة تاريخية عن حياة جيل كامل (روايات غسان كنفاني وحنا مينه) أو مرحلة طويلة (روايات نجيب محفوظ التاريخية) ومنها تحمل الرواية ، وخاصة التاريخية بعدا وثائقيا يمكن الباحث من فهم هذا الحدث أو ذاك .

وقبل أن ننطلق في عملية البحث عن أنموذج البطل اليساري والارضية الايديولوجية التي ينطلق منها ينبغي أن نحدد هذا المفهوم السياسي ونعطيه تأطيرا مضبوطا ،، ونحاول تطبيق خصوصياته على النماذج البطولية في رواياتنا العربية . فاليسارية تعني هذه المنظومة من الافكار السياسية التي

(1) الايديولوجيا الالمانية ص 57 وهو كتاب صدر سنة 1848

تقوم على اعتبار المجتمع كلية واحدة تنتفي منها المواصفات الفردية لبكون الحضور الانساني جماعيا خاضعا لتطبيقات اشتراكية وتنظيرات ايديولوجية وفكرية تقنن مسيرة البطل وأطروحاته انطلاقا من مقولة : إن **اليسار** هو النقيض التاريخي لليمين على مستوى التنظيرات الاقتصادية والاجتماعية حيث ان الاخير يقدس الحرية الفردية الى حد تذوب معه شخصية المجتمع ككل .

فاليسار بحكم ما يشتمل عليه من تنظيم سياسي (الحزب أو الخلية أو الرابطة) والتأطير الحركي هو التعميق الموضوعي للثورية التي تتطاوح وتتراوح بين الموقف العاطفي والموقف المناضل . فيكفي أن يدين المرء ظاهرة من الظواهر حتى يعد موقفه ثوريا ، ولكنه ليس يساريا لان ذلك يفترض تجانسا وتطابقا بين المنطلق الفكري والعمل الممارس بينما كلمة ثوري كلمة هشة مسطحة فقدت مدلولها ،بحكم الاطلاقات والتسميات المجانية غير الموضوعية التي كثيرا ما نلجأ اليها لسبب أو لآخر ...

وكثيرة هي المواقف التي أسميناها ثورية في حين أنها مواقف طبيعية لا بد أن تتخذ بحكم منطق الظروف والتحديات .

ومن ثم **(البطل اليساري** ليس مجرد بطل يعلن رفضه المسطح لهذه الانتهاكة أو الاخرى أو يكتفي بالرفض التلقائي المتسيب لسلبيات المجتمع ، بل هو بطل متجذر الوعي مترسخ التنظير ، تلتقي في حياته الممارسات اليومية مع طبيعة المجتمع المرجو والمنتظر ... فهو لا يتحرك بصفة عشوائية ،، بل طبقا لما تمليه عليه اعتقاداته ، والخلفية العقائدية التي ينتمي اليها ... فالبطل اليساري ينطلق من تصورات معينه ويحلل الاوضاع على ضوئها تحليلا يعتبره ـ هو ـ علميا وصولا الى بناء المجتمع لا أقول المثالي ـ ولكنه النموذجي .

فاليسارية = ايديولوجية تقدمية + ممارسة = مجتمع نموذجي

وكأنني أتحسس اعتراض القارىء على هذا التفسير لهذه الكلمة ، اذ من المواقف اليسارية ما يتسم بالعنهجية والانحطاط والفراغ ،، ولكننا نطلق على الشق المتطرف من اليسارية مصطلحا جديدا بدأ يفرض نفسه بكثافة في الاجواء السياسية ، وهو مصطلح « **اليسراوية** » ، وهي ضرب من ضروب الفوضوية والعمى الفكري والتكلف المفرط والرفض من أجل الرفض وصولا الى تهديم كل القيم والمثل وتحقيق هدف الفراغ المطلق .

فاليسارية بناء والتزام وعقيدة تستلزم ثباتا على النضال والصراع بينما « اليسراوية » ، التي يمثلها الماركسيون الارتودكسيون والتروتسكيون كفر بكل

هذا وايمان باللاشيء والعدمية ... فهل أفرزت الرواية العربية أنموذج البطل اليسارى البناء فى مجتمع يزخر بالتناقضات من اليابسة الى اليابسة ،، وتتبدر فيه الطاقات المؤمنة بالتغيير ؟؟

وذلك سؤال دون الاجابة عنه تقييم سيل زاخر من الروايات متفاوتة مضمونا ومحتوى ، ومتباعدة زمانيا أفرزتها ظروف مختلفة وشرائح طبقية متضاربة المصالح والاهداف والطموحات . واذا ما كان المجتمع المصرى بحكم ما شهده من تداخلات وتضاربات أولها مروره بسيطرة عثمانية أو توقراطية مستبدة وعلاقات انتاجية ريفية طالما عانت منهما البرجوازية الوسطى المصرية الامرين حتى لما وجدت الفرصة سانحة انتهزتها لتبشر بقيمها وتنشر مبادئها الاقتصادية ، ومن ثم جاء عمل روائى مثل رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل (2) عاكسا وضعية نمط انتاجي اقطاعي منحسر ونمط رأسمالى متغلغل، وحاملا فلسفة لبرالية برجوازية قوامها اعلاء الحرية الفردية فوق الجميع والتعالى عن قيم المجتمع بالضبط كما فعل البطل...و«حامد» رغم انه يبدو بطلا بيرونيا متمردا على المجتمع ، فهو ليس فى نهاية المطاف سوى نواة من نواتات اللبرالية ،، والممارسات البرجوازية اذ أنه لا يطرح فقط فهما وتصورا للعلاقات الاجتماعية والعاطفية حيث يحلم بالتفرد بالحبيبة دون أدنى عقبات خارجية وتعرضات انطلاقا من ايديولوجية كبرجوازى أفسح له المجال على مستوى الساحة الاجتماعية بعد ضيم قرون . ولقد نجح محمد حسين هيكل فى تصوير هذا الانموذج الجديد من العلاقات وسط مجتمع لا تزال تشده بذور نمط الانتاج الاقطاعى ، حين جعل « حامد » الشاب المثقف يستشعر دوما فى علاقاته مع الفتاة الريفية ــ المتزوجة ــ مدى الفروق بينهما ،، ولكنه وصولا الى اللذة المشتهاة يتعامل معها متناسيا ما بينهما من تباينات ... وفى رأيى أنهذا الموقف يحمل أكثر مندلالةرمزية وبعد ايحائى اذا ما أدركنا نوعية العلاقات الانتاجية . ويمعن « حامد » البطل المثقف فى الممارسات الفردية المغرقة فى النرجسية عاكسا تذبذبه الاجتماعى وفراغه من الوعى السياسى :

(2) حتى لا ننسى فان مؤلف « زينب » من كبار باشوات عهده وعرف بملكيته للارض ، ثم رئاسته لحزب الوفد فى فترة معينه : وهذا الحزب يضم عادة البرجوازية الوطنية المصرية المتفتحة والمثقفين التقليديين وملاك الارض والتجار ، فاذن هو حزب النخبة ، وقد عرف أيضا بتأسيسه لمجلة «الرسالة » التى كانت تضم النخبة المثقفة أيضا . وهكذا تأتى الرواية في سياقها سواء التاريخى أو الشخصى .

« لا شيء أشد ايلاما لنفس « حامد » وأصعب وقعا من أن يتصور نفسه خارجا من باب الحياة وحيدا منفردا لا ينظر اليه أحد ، ولا يعلم بأمره انسان ، بل مر بهذا الوجود الارضى من طرف لطرف واختفى فى التراب ولم يترك أثرا » (3) . وأزمة هذا البطل الرمانسى أزمة اضطراب اجتماعى وعدم قدرة على التكيف والتأقلم مع طبيعة الظروف والتقاليد المفروضة داخل التركيبة الاجتماعية . يقول مصطفى ناصف : « ليس الذى أهم « حامدا » شيئا شخصيا بحتا ، بل هو فى الحقيقة أمر جوهرى فى دعم الاحساس الاجتماعى » (4) . وهكذا يمضى « حامد » فى العزف على أوتار اللذة الابيقورية رغم علمه بأن زينب متزوجة ولكن كفره وتمرده يدفعانه الى النزق ورفض الاذعان لقيود الزواج . فالمأساة عند « حامد » هى التصادم بين النظام الاجتماعى والحرية الفردية ،، ولذا جاء تمرده أهوج فارغا من كل مضمون ثورى تغييرى ، فيبقى على الواقع بكل تناقضاته وسيئاته ، بل هو يمجد النظام الاقتصادى الظالم ويعترف بأن فواصله الطبقية لا يمكن اجتيازها وهو الشاب المثقف ... ورغم أن « هيكل » حكم على بطله بالانبتات والموت فى سجف الفردية والانانية ، فان « يحى حقى » فى روايته « قنديل أم هاشم » أفرز أنموذج بطل مثقف ثورى يحاول الاندماج فى لب العلاقات الاجتماعية مع الاحتفاظ بالرفض للشعوذة والدجل المنغرسين فى صلب المجتمع ، ويحاول أيضا ايصال العلم والمعرفة لابناء قومه ليشعل فيهم الامل ويعلمهم الكفاح والعمل . وباختصار كان اسماعيل فى هذا الريف المصرى طاقة حياة كامنة تفجرت خيرا وسلاما : « فرأى أمامه ريفا يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل ، فهو مهدم معفر متخرب.الباعة على المحطات فى ثيات ممزقة يلهثون كالحيوان المطارد ويتصببون عرقا . ولما سارت العربة من المحطة ودخلت شارع الخليج الضيق ... كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب وفقر وخراب فانقبضت نفسه » (5)

فرواية « قنديل أم هاشم » رواية ذات نفس تقدمى يلعب فيها البطل دورا ايجابيا ،، وتنادى بحتمية تطوير العلاقات سواء الانسانية منها أو الاجتماعية

(3) رواية زينب صفحة 207 و 208

(4) مصطفى ناصف : رمز الطفل ؛ دراسة فى أدب المازنى ص 9

(5) الرواية : قنديل أم هاشم ص 67 : يقول عنها يحى حقى انها لقاء الحضارات وتجربة من حياتى حيث مدى تأثير حضارة الغرب على شخصيتى ومفاهيمى ومعتقداتى : ففى الرواية جانب من الترجمة الذاتية .

حتى ترتكز على منظومات العلم ومكتشفاته قضاء على الجهل ، انطلاقا من وضعيات وخصوصيات البيئة من تراث وظروف موضوعية كما يقول الدكتور على الراعي . لقد كان البطل فعلا نقطة اشعاع حضارى أضاءت نفسها حين التحمت بعالم « النحن » وأضاءت الاخرين حين واجهتهم بحقيقة جهلهم ،، فكشفت الغشاوات عن أبصارهم ، وكانت صدق اليقين ، بينما كان البطل فى رواية « زينب » بطلا هشا ومغتربا فى نفس الوقت (6) بل قل : زائفا لا حقيقة له لانه لم يعرف حرارة الالتصاق الانسانى والجماهيرى فظل فوقيا رمانسيا فى أحلامه ، رمانسيا فى مواقفه ،، ورمانسيا فى ممارساته الحياتية . الا أن « اسماعيل » رغم التقدمية التى أعلنها سلوكيا وعمليا لا يمكن اعتباره بطلا يساريا لانه كان يتحرك من موقف المتعاطف والمنحاز الى هذه الفئات الاجتماعية لا على سبيل التجسيد لموقف إديولوجى بحت . اذن فهو ثورى كبقية الثوريين وكفى ! ولست أشاطر الدكتور على الراعى حين قال : « والذين كانوا ينتظرون من اسماعيل أن يسير قدما الى الثورة بالسلاح والشعار مخطئون أيما خطأ . انهم يبحثون عنده ما لا يمكنه ،، وما لا يستطيع تقديمه ، انما أقصى أمانيه أن ينشر الخير والتقدم فى دائرة من الناس » (7).

ورغم اننا لا ننفى الطابع الانسانى والتقدمى لعمل اسماعيل حيث انه حاول فهم مجتمعه والتمسك بتراثه مع اصلاح وضعيات متردية وهابطة مثل الايمان بالاولياء والخرافات والدجل ،، وهو دور من أوكد الادوار فى المجتمعات النامية باعتبار تعفن وضعياتها الا أنه عجز عن خلق التفاف شعبى حوله يعتنق نظرياته ومبادئه ،، ومن ثم يسهل التعفن فى أعشاشه ومنعه من التفريخ حتى وان استوجب ذلك حمل السلاح والتبشير بالثورة والدعوة لها من أعلى المنابر . على كل ان محاربة الشعوذة وعبادة الاضرحة هى خطوة ايجابية نحو

---

(6) ولئن كانت الاستعمالات الادبية لا تفرق بين بطل هامشى وآخر مغترب ، فان الفرق بائن وواضح . فالبطل المغترب يكون واعيا بذاته ومشاكله وطبيعة معايشاته اليومية . أما الهامشى هو الذى يعيش على هامش حضارتين أو جماعتين بدون أدنى اتصالات بهما. فالانسان الهامشى انسان سلبى يعيش الاحداث ولا يتأثر بها أى بمعنى أنه ينفعل ولا يتفاعل على عكس المغترب الذى يشعر بأزمته وأزمة مجتمعه . والهامشى لا يعى مشكلته ومعاناته ولا يتحرك للتغيير .

(7) على الراعى : دراسة فى الرواية المصرية : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر

التغيير الشمولى للمجتمع واستبدال علاقات الانتاج الظالمة لان المثقف مستطيع بغيرة كما يقول روجى ڤارودى : « الوعى بالـذات مرهـون بالاتصـال مـع الآخرين ـ هذه النظرة تسمح بتحريرنا من الفردية مع استمساكنا باحتـرام استقلال الوجدان ، وتعطينا وسائل التغلب على الالينة » (8)

ان ثورية « اسماعيل » بطل « قنديل أم هـاشم » لم تأتـه من التمـرس والاحتكاك الاجتماعيين والتعمق فى الاطلاع بقدر ما هى ثورية نظرية مكتسبة من الكتب والمجلدات ،، وهكذا مرة أخرى أطلعتنا الرواية العربية عن نوعية العلاقات القائمة بين المثقف العربى ومجتمعه والتى تبدت لنا مع كل خطوة من خطوات اسماعيل علاقة انفصام بل قل انفصال ...

من الروايات العربية ما هى الامتداد المضمونى الفعـلى لما تقدم حيث ان البطل « ابراهيم الكاتب » فى سلوكياته يكشف عن ممارسات زئبقية سائلـة مجسدا روح الهروبية والتمرد والرفض السلبى مما يجعله يشارك « حامد » ـ بطلنا المتقدم ـ الشعور بالغربة والضعة ، خاصة فى تجاربه **العاطفية** ،، فهو لا يعرف استقرارا على حال ولا يدرك كنه الثبوتية ،، دائم **البحث عن المطلق** . فالعالم الذى يتحرك فيه كل من « حامد » و « ابراهيم » عالم صدام مع المحيط الخارجى وانتكاسة داخلية مما يجعل الشخصية مهوشة مهـزوزة ، فـأزمـة « ابراهيم » المثقف هى أزمة كل شرائح البرجوازية الصغيرة فى الوطن العربى التى تفتحت أعينها على اساليب حياتية غير المتواجدة فـى مجتمعـاتـهـا ، الامر الذى لا يوفر لها جو الانتعاش والتأقلم ، فيداخلها شعور بالاكتـئـاب والتأزم الوجدانى العاطفى ومنه الفراغ . وما تأكيد « المازنى » على اضطراب البطل عاطفيا وفشل تجاربه مع الفتيات الثلاث : « مارى ، شوشو ، ليلى » الا علامة أخرى تدلل على مدى طهرانية المجتمع وتغلغل القيود التحـريـمـيـة التأبيدية فيه بما لا يتناسب وانفتاحات البرجوازية الصغرى التى تسعى الى شق طريقها وفرض نمطيتها الحياتية ..

ان العلاقات العاطفية لئن شكلت الحياة الداخلية للبطل فهى أيضـا جـزء لا يتجزأ من تجربته الخارجية التى يمارس فى اطارها الرفـض للعـلاقـات الانسانية المطبوعة بالكبت ومن ورائها كامل الهيكلة الاقتصادية والاجتماعية. لان طبيعة المجتمعات المحافظة ظاهريا فى حين أن دواخلها تغلى غليان المرجل،

(8) روجى ڤارودى : ماركسية القرن العشرين : طبعة سـوي (Seuil)
ترجمة نزيه الحكيم : دار الآداب بيروت

تناسب عادة الاوساط الارستقراطية . يقول بطل الرواية : « عجيب .. عجيب .. حين أذكر مارى أحس سطوة القوة وصيال العزم وعتو الجبروت ، وأتصور شوشو فأحس وقار التجربة وسمت العالم وأبهة الشيخوخة وحنو الابوة ، وأكون مع ليلى فأرانى كأنى أتعلم رقصة الحياة على ايقاع الشباب..»(9)

ففى ممارساته يكشف ابراهيم عن موقف طبقى استعلائى اذ أنه يرفض الزواج من الممرضة السورية « مارى » بعد أن غرقا فى دوامة حب عاصفة ، ظنا منه أنه أرفع مستوى فكريا وحتى على مستوى السلمية الطبقية ،، وذلك تدليلا على أنانيته وفرديته المفرطة وكما يقول أحمد ابراهيم الهوارى : « البطل ابراهيم يهرب من اقتحام السور – سور الجهل الاجتماعى – بل يقتات مما تثمره فرديته من حنظل ولذا فطعم حياته مر وعالمه عقيم . » (Io)

وفى رأيى أن تعديد الامثال الابداعية الروائية يثبت ندرة مثال **البطل اليسارى** فى الرواية العربية حيث ان فكرة اليسار هذه الى فترة قريبة جدا رمز من رموز الالحاد والكفر بمعتقد المجتمع ، ومن ثم تأخرت نضوجات هؤلاء الابطال . ولعل أول أنموذج مضطرب للبطل اليسارى ما صوره نجيب محفوظ فى كتابه « القاهرة الجديدة » ، وهو « على محمود طه » الذى على غموض الاطروحات الاشتراكية فى ذهنه استطاع أن يتصدى لاشكال الاستغلال والظلم رغم انحداره من احدى شرائح البرجوازية الصغيرة ... ان هذا البطل – تقريبا – هو أول أنموذج للشاب العربى المناضل والرافض لعلاقات عصره الاجتماعية والطامح الى استبدالها بأخرى ،، اذن فهو يتحرك من أرضية إيديولوجية محددة ويقرن الممارسات بالافعال وصولا الى الهدف المنشود : ألا وهو المجتمع الاشتراكى ، ومن ثم تلتبس الامور فى أذهان البعض فيعتبر « على محمود طه » بطلا يساريا !!

فشخصية « على طه » شخصية ثورية لما تمثله من رفض للاسطورية الدينية التى تغذى فينا روح التماوت والعجز عن العمل والفعل ، واستبدالها بروح العلم وضروب التقدم :

فقال « مامون » وقد تالقت عيناه بنور خاطف شانه عند الاهتمام :

---

(9) رواية زينب 207 لمحمد حسين هيكل : دار الهلال

(Io) أحمد ابراهيم الهوارى : البطل المعاصر فى الرواية المصرية : رسالة ماجستير دار الحرية .

ـ حسبنا المبادىء التى أنشأها الله عز وجل

فاستمر « على طه » قائلا :

ـ أؤمن بالمجتمع ، الخلية الحية للانسانية ، فلنرع مبادئه على شرط ألا نقدسها لانه ينبغى أن تتجدد جيلا بعد جيل بالعلماء والمربين .

فسأله « أحمد بدير » :

ـ ماذا يحتاج جيلنا من مبادىء ؟

فقال « على » بحماس :

ـ الايمان بالعلم بدل الغيب والمجتمع بدل الجنة ، والاشتراكية بدل المنافسة : » (II)

وفى كلمات قصار حدد البطل الخليفة الايديولوجية التى ينطلق منها والمرتكزة على احلال العلم مكانة لائقة ، ومقاومة اشكال الاسطورية والعلاقات الرأسمالية المبنية على المنافسة الحرة والاحتكارات تحقيقا للمجتمع الاشتراكى الفاضل . وهو مع ذلك لا يدخر أى جهد ،، فيستغل ملكة الخطابة عنده لينشر مبادئه واعتقاداته ويعمل على توعية القطاعات الشعبية والطلابية بتوزيع المناشير رغم حملات التفتيش والاعتقال الموجهة ضده ان « على محمود طه » يؤمن بحتمية الاصلاح الاجتماعى وتطبيق الاطروحات الاشتراكية ،، ولم يكن يملك سوى كلمات ثورية عجزت عن منع حبيبته الفقيرة من السقوط فى قمقم الانحطاط والتردى والتمرغ فى أحضان « البك » ، وعجزت عن منع رفيقه « محجوب عبد الدائم » من التملق الخسيس للمجتمع الارستقراطى . فمما لا يرشح « على محمود طه » أن يكون البطل اليسارى الاول فى الرواية العربية هو ضبابية الافكار الاشتراكية عنده اذ أنها لا تعنى تغييرا للهياكل والمؤسسات والعلاقات الانتاجية بقدر ما تعنى احداث اصلاحات قشرية فى المجتمع والاقتصاد ،، وتطهير العقلية من الشعوذات ،، ومن ثم تكون اشتراكيته طوباوية تذكرنا ببعض فلاسفة القرن I9 مثل فوريى ، سان سيمون ، وبريدون ، أضف الى ذلك أن هذا المناضل الثورى ، وعلى غرار كل مناضلى اليسار عند نجيب محفوظ ، معدوم العلاقات الاجتماعية لا يحمل سوى مفاهيم باهتة شاحبة لا تقدر على احداث شرخ فى جبل التعفن والنتونة . وكأنى

(II) رواية القاهرة الجديدة ص 207 حتى 2I0 : لنجيب محفوظ

بالروائي لا يؤمن البتة بامكانية انتصار اليسار في الوطن العربي بحكم استفحال عقبة التصور الديني أو حتى بحكم طوباوية الافكار التي لا تتناسب وخصوصية مجتمعاتنا ــ فشخصيات « أحمد شوكت » و « عيسى الدباغ » و « عثمان خليل » شخصيات فضائية معلقة على حبال الاقدار تهزها من الداخل قسوة الانتكاسات والعجز عن التأقلم الاجتماعي والتكيف المتوازن .

وفي رأى نجيب محفوظ ، فالصراع الثوري عوض أن يتوجه نحو أعداء الخارج يصبح صراع تصفية حسابات وانتهازية ثورية من أجل القيادة تماما كما في رواية « ميرامار » حيث يقدم لنا شخصية « سرحان البحيري » الانتهازي المتصدر لاجهزة الثورة وصولا لمآربه وأغراضه النفعية .

ان « علي محمود طه » يمكن اعتباره البطل اليساري الاول لو كان يحمل تماسكا بنياويا فكريا راديكاليا بعيدا عن الاصلاحية ، ويتمتع بتجذر اجتماعي .

ان طبيعة ظروف المدينة ومختلف تضارباتها صالحة للرواية ولكنها عاجزة عن افراز بطل يساري بالمفهوم الماركسي للكلمة لان وعي التناقضات الانتاجية وعلاقة البنية الفوقية بالبنية التحتية أمر مرده الى طبيعة الحياة الريفية ، ومن ثم كان التركيز في الرواية الاوربية الثورية على أهمية الريف في تنضيج البطل فكريا كما ورد في روايات « زولا » « وستندال » . وهكذا كان على محمود طه عاجزا عن فهم المجتمع وايصال أفكاره اليه .

المنصف وناس

ــ يتبع ــ

الطفل

شعر : عبد الرحمان الكبلوطي

عِنْدَمَا الطِّفْلُ (*) ظَهَرْ
بَاسِمَ الثَّغْرِ جَمِيلا كَالزَّهَرْ
صَفَّقَ الأهل انشراحا في السَّمَرْ
وَتَمَنَّوْا لِوَلِيدٍ هَلَّ ، مَمْدُودَ العُمُرْ
وَغَزَا أَعْيُنَهُمْ بِشْرٌ عَظِيمْ
جَاوَزَ الحَدَّ بِمَرْآهُ القَوِيمْ
وَمَحَتْ أَفْرَاحُهُمْ كُلَّ تَجَاعِيدِ الجِبَاهْ
فَانْتَفَى الحُزْنُ
وَجَاءَ الطفل يَرْنُو لِلحَيَاةْ
وأتاهُمْ مَلَكُ الطُّهْرِ بَرِيئا
فَرِحا ، كَمْ يَسْتَبِي النَّاسَ بَهَاهْ .

* * *

عندما الطِّفْلُ ظَهَرْ
فَرِحَ الكُلُّ لِمَرْآهُ انْبَهَرْ

(*) هذه القصيدة معربة بتصرف ومقتبسة عن قصيدة Lorsque l'Enfant parait للشاعر الفرنسي فيكتور هيغو Hugo [7] .

سَعِدَ الأهْلُ مع الأحْبابِ وازْدادَ الفَرَحْ
وأشاعَ الطِّفْلُ في البَيْتِ المَرَحْ
فَضَحِكْنَا ، وعَزَفْنَا
نَغَمَاتٍ ، وهتفْنَا
باسْمِه المَيْمُونِ في البيتِ ، الصَّغِيرْ
ورَأيْنَا أمَّهُ نَشْوَى ، كَعُصْفُورٍ يَطِيرْ
كُلَّمَا حَرَّكَ جِسْمُ الطِفْلِ خَطْواً للْمَسِيرْ .

* * *

كُلَّمَا الطِّفْلُ ظَهَرْ
نَسِيَ الأهْلُ أحاديثَ السَّهَرْ
وكَلاما في شُؤونِ الشِّعْرِ والأوْطَانِ
والأدْيَانِ والجنَّةِ والحُورِ الحِسَانِ
نَسِيَ الأهلُ حَدِيثَ الرّوحِ ...
يَرْقَى بِسَلامٍ للسَّمَاءِ العَالِيَه
وتَغَنَّوْا بوَلِيدٍ ذي سِمَاتٍ غَالِيَهْ ،
أسْكَتَ الجمْعَ بِمَأتاهُ ، فَلا مِنْ داعِيَهْ .

* * *

قُرَّةُ العَيْنِ بَدِيعُ القَسَمَاتْ
طفْلُنا المَحْبُوبِ حُلْوُ البَسَمَاتْ
أبْيَضُ الفعْلِ ، نَقِيُّ الصَّفَحَاتْ
صَوْتُهُ الصَّدَّاحُ عَذْبُ النَّغَمَاتْ
يَرْتَجِي ، التَّعْبِيرَ عنْ كُلِّ الذَّوَاتْ
ـ فَبُكَاءُ العَيْنِ عِنْدَ الطِفْلِ يَهْدَأ

لحظةً مِنْ بَعْدِ أنْ كانَ سَيَبْدأْ —
مفسحا للعَيْنِ مَنْظَارا بِأَعْلَى الشُّرُفَاتْ
وَاهِبا نَفْسَهُ تَرْنُو بابْتِسَامٍ للحَيَاةْ
فاتحا مَبْسَمَهُ الغَضَّ لأحْلَى القُبُلاتْ .

* * *

رَبِّ ! جَنِّبْنِي وَجَنِّبْ مَنْ أُحِبّ :
إخْوَتِي ، أهْلِي ، وأصْحابِي النجُبْ
وَكَذَا جَنِّبْ ، أيا رَبِّ ، خُصُومِي
— رَغْمَ ما ألْقَى لَدَيْهِمْ مِنْ هُمُومِي —
رؤيَةَ الصَّيْفِ خَلِيًّا مِنْ زُهُورِي
وَرُؤَى الأقفاصِ مِنْ غَيْرِ طُيُورِي
وَخَلايَا الشَّهْدِ لا تَغْلِي بِنَحْلِي
وَبُيُوتَ الأهْلِ تَشْتَاقُ لِطِفْلِي .

عبد الرحمن الكبلوطي

من وحي السنة العالمية للطفل

البحث عن الابن الضائع

قصة : محمد الصحبي الحاجي

تقف بالمحطة وبيدك الحقيبة . نظراتك زائغة وركبتاك ترتعشان .. تحول ببصرك من حواليك فتلفى نفسك محاطا بأسوار المباني الشاهقة .. وخلف هذه المباني مبان أخرى .. فى مكان ما من هذا الحشد من العمارات يوجد مأوى ما يقيم به ابنك .. لكنك لا تعرفه .. فقد يكون على بعد بضعة خطوات منك وقد يكون على بعد بضعة كيلومترات وقد يكون أبعد وقد يكون أقرب .. وقد لا يكون موجودا بالمرة .

تحتار فى أى اتجاه تأخذ .. ذراعك تنوء بحمل الحقيبة .. تضعها على الارض تجلس عليها .. يثقل رأسك .. تضعه بين يديك .. تأخذ فى التفكير .. ما الحل .. لقدغادر ابنك البيت منذ بضعة أشهر لا تعرف عددها بالضبط ، اثر خصام نشب بينه وبين زوجتك وانحزت فيه اليها انحيازا أعمى كما جرت العادة ورميته بالذع أنواع السباب وأطردته من منزلك..فخرج ومن يومها لم يعد .. لم يصلك عنه بعد ذلك أى خبر .. شكرتك زوجتك الشابة لانك لم تخيب ظنها فيك وتصرفت كما يجب على الأب أن يتصرف فى مثل هذه الحالات مع ابن عائق يضايق زوجة أبيه.. قالت لك : إنه يعمل ويكسب الكثير ولا يصرف شيئا على البيت والأسرة .. قلت لها مصححا : إنه كثيرا ما يبتاع الملابس واللعب لاخوته ، قالت لك : ذاك لا يكفى .. قلت لها : إنه لا يتردد اطلاقا على مساعدتك كلما احتجت وطلبت منه ذلك . قالت : انـى أريـد أن يضع كل ما يكسبه بين يدى لأصرفه على لوازم البيت ، قلت لها : ان ذلك غير معقول وانه شاب وحاجياته كثيرة وهو بصدد بناء مستقبله ، قالت لك: انك تبالغ فى تدليله وانها لم تعد تطيق بقاءه فى المنزل وانه يدخن كثيرا .. وانه .. وانه .. وانه .. وانها بحاجة ماسة الى الغرفة التى يقيم بها لتستعملها فى أغراض أخرى .. قلت لها .. قالت لك .. قلت .. قالت .. حتى كان ذلك اليوم الذى فاض فيه الكأس وأطردته .

ولم تشعر فيما تلا من الايام بأى ضيق .. لكن ما ان مضى اسبوع حتى بدأ شيء فى صدرك يتحرك .. وبدأت تفتقد حضوره وتفتقد صوته .. ثم بدأت تحن اليه .. صرت تكثر من الدخول الى غرفته وتتأمل بألم ما أدخلته عليها زوجتك من تحويرات كانها أقرت العزم على الغائه تماما وكأنها اطمأنت الى انك استسلمت للامر الواقع . ظهر عليك نوع من الاضطراب وبدأت تلوم نفسك سرا ثم علانية وتفطنت زوجتك الى ذلك فسارعت الى تعنيفك بشدة ورمتك مرة أخرى بالضعف ، ووصفته بالعقوق .. لكنك غضبت كما لم تغضب فى حياتك ، وقررت أن تسافر للبحث عنه .. وقبل أن تفلح زوجتك فى اثنائك عن عزمك اخذت حقيبتك وقصدت العاصمة .

ترفع رأسك .. ويعود بك الوعى بمكانك فى المحطة .. تحس بالدمع يبلل رموشك وبالغصة تسد حلقك وتتساءل عن وجهتك .. أمامك ست ساعات من النهار .. وبعدها يأتى الليل وتصبح مهمتك أكثر صعوبة .. أقدام المارة تقرع الرصيف بجانبك .. أطفال صغار لم يهملهم آباؤهم يلعبون ويتصايحون ، سيارات وعربات مجرورة تمر عن كثب منك .. كلهم يعرفون وجهتهم الا أنت.. تقف وتقرر ان تسير الى حيث تقودك الصدفة لعل القدر يهيء لك لقاء .

قدماك تنتقلان بوهن والحقيبة تزداد ثقلا .. هممت أن توقف تكسى لكن بماذا تشير على السائق .. أين أنت يا هادى يا ابنى لماذا تعذبنى بالبحث

عنك .. قد يكون فى السجن وقد يكون فى المستشفى من يدرى ؟ تنقم على زوجتك فى تلك اللحظة لانها هى السبب .. بل أنت .. بل هى .. ماذا يفيد هذا الآن المهم ان تجد ابنك .. ها هو ذا .. كلا انه فتى يشبهه .. لا يمكن ان يكون القدر متسامحا لهذا الحد .. تواصل السير وقدماك بدأتا تؤلمانك .. تمر بحديقة وتلجها تجلس على بنك وتضع الحقيبة بجانبك .. تعود الى التفكير فى المكان الذى ينبغى ان تقصده .. النزل .. ذاك افضل مكان .. تعجبك الفكرة فتسارع الى تنفيذها .. تقوم وتخرج مهرولا وترمى بنفسك فى الشوارع عيناك معلّقان الى فوق تتطلعان الى جباه الابواب .. وكالة السعادة ، هذا هو مبتغاك تجتاز العتبة تفضى بك الى دهليز .. تشاهد عجوزا يجلس على دكانه .

تسلم عليه فلا يرد ، تسأله عم اذا كان لديه غرفة شاغرة ، يهز رأسه بالايجاب ويقودك الى غرفة بها خمسة أسرة يشير عليك باحتلال واحد منها ، تضع حقيبتك تتمدد على سريرك تعود الى التفكير فى المهمة التى جئت من أجلها تنظر الى ساعتك ، بينك وبين المغرب ثلاث ساعات بامكانك أن تقطع

خلالها ما شاء الله من الكيلومترات وتتصفح مئات الوجوه ، تقوم على عجل وتغادر الغرفة ، يتلقفك الشارع .. تتجه حيثما اتفق تاركا للصدفة أن تقودك حيث ربما يوجد ابنك ، تحس بالنشاط رغم التعب ، تأخذ عيناك تنتقلان من وجه الى آخر تكاد تصاب بالدوار ، وجوه متعددة الاشكال والالوان .. وفى كل مرة تتوقع ان تقع عيناك عليه ، تشعر بالتعب تجلس على أول كرسى يصادفك ، لم تطلب شيئا ، يتجاهلك النادل ، بقيت أمامك ساعة واحدة ، تتذكر المسافة التى تفصلك عن الوكالة تقرر العودة ، تقوم وتعود أدراجك ، تواصل السير بلا هوادة .. تتنقل من شارع الى آخر .. وفجأة .. تدرك انك تسير فى طريق لا يقودك الى مبتغاك .. انك تتوه فى المدينة ولا مخرج لك .. تعتصر دماغك لتتذكر اسم الوكالة التى نزلت فيها دون جدوى . تستعرض عدة تسميات تصلح لأمثال هذه المحلات فلا تجد واحدة منها تنطبق على وكالتك ومع ذلك تواصل السير محدقا فى اسماء الشوارع لعلك تتذكر انك مررت منها سابقا .. انك تبتعد بدون شك .. ما أسهل الضياع فى مدينة لا تعرفها .

تقفر الشوارع شيئا فشيئا من المارة .. لم تعد تتبين الوجوه القليلة التى تصادفك .. يهبط الليل وتضاء الانوار وتخرج القطط تبحث لها فى صناديق القمامة عما تقتات . تحس لأول مرة بالجوع يقرص امعاءك . انك لم تأكل شيئا منذ الصباح ..لم تأبه لذلك تواصل السير بلا هوادة .

تصادف حديقة فتدخلها وتقرر ان تقضى الليل بها تتكىء على البنك وتضع ذراعك تحت رأسك وسرعان ما تنام .. يوقظك حارس الحديقة ويقول لك : ليس الحديقة محلا للنوم ، أتظنها وكالة السعادة ؟.. وكالة ... وكالة السعادة ! لقد انفجر الاسم فى رأسك .. وكالة السعادة ... لقد قبضت على طرف الخيط..وكالة السعادة..ولكن من سيهديك اليها.. تغادر الحديقة بسرعة تقصد أول مركز للشرطة تسأل وتسأل لا أحد يعرف وكالة بهذا الاسم . ها هى صيدلية تدخلها .. تسأل عن وكالة السعادة فلا يجيبك احد .. لا أحد يرغب فى مساعدتك ... تجد نفسك وحيدا فى مدينة واسعة الكل بسببها لا يدرى الآن ما أنت فيه من غم ..

وتعود بك الذاكرة الى الماضى يوم كان الهادى صبيا يدرس ، كان ولدا ذكيا .. وكنت ساعتها تتردد على المدرسة لتسأل عنه المعلم فيطمئنك عليه ويقول لك : انه طفل نجيب حقا . وكانت بطاقته الثلاثية ترد عليك فتقرأ فيها ملاحظات طيبة واعدادا مشجعة فيملؤك الفخر به وتتنبأ له بمستقبل بسام ... وتموت والدته .. ويدخل هذا الحدث الاضطراب

عليه بيد انه استطاع مع ذلك استعادة توازنه بسرعة وابراز تفوقه من جديد لكن الى حين . فما أن تزوجت حتى بدأت تظهر على الولد اعراض أخرى لا تبشر بخير .. ولم تول انت ذلك اهتماما فقد تفرغت لعروسك الشابة كليا ، ونسيت .. نسيت ابنك .

وذات يوم اطرد الولد .. اطرد من المعهد لضعف نتائجه ولكنك لم تشعر بما يشعر به الآباء عادة فى مثل هذه الحالات لأنك كنت غارقا يومها فى السعادة.حتى أذنيك ولم تأل زوجتك جهدا في التهوين من شأن الحدث مشيرة عليك بتعليم ابنك حرفة لان ارباب الحرف يكسبون أكثر من الموظفين وقصت لك حكايات عديدة لناس تعرفهم حققوا مكاسب كبيرة فى حياتهم واشتروا الحلي لزوجاتهم واستحسنت الفكرة ورحت تبحث لابنك عمن يقبل تلقينه صنعة فلم تجد الا حلاقا مسنا يملك دكانا قريبا من منزلك قبل تعليمه الحلاقة فأودعته عنده وأنت راض عن نفسك لتتفرغ الى عروسك .

لكن الولد سرعان ما قلق من العمل بالدكان فصار يكثر من الهروب ووضعك امام مسؤوليتك مرة ثانية تجاهه فتبرمت من ذلك ولم تترك زوجتك الفرصة تمر دون ان تدين هذه العملية شر ادانة وأشارت عليك بالحاقه بعمل مهما كان لتستريح منه .. ففعلت وصار الولد يعمل مساعدا لاحد البنائين وذقت انت أولى نقوده .. ولم تمض بضعة أشهر حتى حذق صناعة البناء فالتحق بحضيرة احدى الشركات فتحسنت حالته المادية ..

انك تتذكر كل هذا الآن .. وتعجب كيف حدث هذا دون ان تتدخل لتساعد الولد وتنقذ حياته .. كانك كنت غائبا طيلة هذه المدة عن الوعي .. تنظر الى ساعتك ، كانت تشير الى الواحدة ليلا وانت لم تيأس من العثور على ابنك . أتراه كان حاقدا عليك لانك قصرت فى القيام بواجبك نحوه .. تشعر بالتعب والضياع لكنك تشمت فى نفسك .. ها هو ذا مركز شرطة تدخل تسأل ، فيجيبك الشرطى نعم اعرفها ويرسم امامك على الورقة الطريق الموصلة للوكالة .. تنطلق مسرعا حتى تصل الى محل اقامتك وهناك تلقى بجسمك على السرير وتنام .. كما لم تنم فى حياتك قط ..

تحس بيد تهز كتفك وصوت اليف يدعوك ، تفتح عينيك لقد طلع النهار .. تحدق فى الرجل المنتصب لصق سريرك . كان عارى الصدر وعلى وجهه ابتسامة ... ابتسامة عريضة تعرفها جيدا وتحبها جيدا وتراها دائما مرتسمة على وجهه عندما كان صبيا . وتلقى بنفسك فى احضانه .

محمد الصبحى الحاجى

إشراق العشق العربي..

شعر: محمد رضا جلالي

وتراودني أحزانكِ وجعا يصعدُ بي قمم الآهاتْ
لأشاهد وجهكِ يلبسه المسحوق وتسكنه النزواتْ
ويسافر فِي المجهول يطارد لونا محفوفا بالوهم
وبالموتِ ...
وأنت ..!
هل أنتِ توهُّجُ صوتي ..؟
حين أقوم وأصرخُ فِي الأمواتْ ..
أن هبّوا هذا يوم نشور تُشحذُ فيه سكاكين الشهواتْ
ويخِرُّ العاشق بالصلواتْ ..
أم أنّكِ خلف السّور تشدّكِ آلاف الصلبانْ
هل أنتِ الأرحامُ البِكرُ تشكّل في طيّاتِك فرسان الرغباتْ
أم أنّكِ جارية تتلهّى في قصر السلطانْ ؟
وندائي ينضبُ قبل بلوغِك في وحل الأحزانْ ..
ودمي يغلي ويحمحم رغم سماسرة الأصواتِ
هو العشقُ العربيّ تجذّر في جسدي
تتعانق فيه الرغبةُ بالبركان
ويعشّش فى حرفي ....
كي يشحذني فوق السيفِ
ويبخر صمتا انهكني وتعفن في جوفي
فدعيني يا أمّي أتمدّد في الطرقاتْ

لأعبّدها بدمي لمّا تأتي العربات
كي تعبرَ أبعاد الأعوام وتقفزَ في الدّرب المجهول بدون سقوط أو كبوات
فأنا لكِ من عمري فصّلت الدّرعَ يقيك من العثرات
بمناسبة اليوم الموعود
يتلاقح في أرحامكِ عشقي بالضّوءِ
وتعود طيورك عاشقة لتعيد لكِ الفرح المفقود
وتفجّر في أعماق القحط زغريدَ النّوءِ
وتنير لكِ الدّرب المسدُود
أنصبّ شرابا في الأكواب
يتراقص فيه العشق لكي يتجرعني الأحباب
فتعالي يا أمّي وترامي فوق ضفافي
إنّ يديّ تدقّان على الأبواب
ودمي لكِ أعراس تخضرّ على الأعتاب
وسواقي نفط تعشق عود ثقاب
اتجرّع ملعقة الصّحو المتوثّب في وجه الموتِ
وأفجّرُ صمت القبر دويّا في صوتي
العشق مضيىء
وأنا أترقّب وحيّكِ حتّى أصبح فيك نبيًّا
كي أهزج ملء فمي :
وطني .. وطني العربيًّا
قد آن لكَ الإجهاز على الحلم الرهمي
قد آن توهجُّنا في دائرة الغسق الأبدي

محمد رضا جلال

● الشعر الفكاهى الغنائى :

العلـــم والأخـــلاق

شعر : حسين طنطاوى

وصل الانســان ـ إلى القمـر لـكـن (بطبـاع) كالبقـر
وصـل الانســان ـ إلى القمر

★

إنسـان ـ صعـد إلى القمـه (فى العلـم) عجيب بالذمـه
هـو ينسى الرحمة ـ والحكمه هو ـ أحيانـا ـ أعمى البصـر
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

العلـم الآن ـ هـو الـراقـى لكن (فى دنيـا الأخـلاق) :
لـم نتقـدم ـ ع الاطـلاق ما زلنا ـ فى العصر الحجـرى
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

★

فـى هـذا العصـر التـاريخى عصـر الـذرة ـ والصواريـخ
فى الدنيـا ـ لا فى المريـخ : نتفنـن ـ فـى قتـل البشـر
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

★

بـأيـادى العلـم الجبـاره نبنـى أمجـادا ـ وحضـاره
ثم نحطمهـا (يـا خسـاره) بقنـابـل ـ تنـزل كالمطـر
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

★

نصنـع أسلحـة ـ ذريـه تقضى ـ ع الكـرة الأرضيـه
بل ـ قد تقضى ـ ع البشريه هى (ع الدنيـا) أكبر خطـر
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

★

قل معنا ـ للـدول الكبـرى : يكفيكـم (لعبـا) بالـذره
(تحـريـم الـذرة) بالمـره هـو للدنيـا ـ أجمـل خبـر
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

★

لـو نتقـدم (أخـلاقيـا) مثـل تقدمنـا (علميـا) :
ستكـون الـدنيـا ـ حتميـا تشبـه للجنـة ـ فى نظـرى
وصـل الانسـان ـ إلى القمـر

مطالعات



قراءة في ديوان "الحب .. مع تأجيل التنفيذ !"
للشاعر الصادق شرف (أبو وجدان)

بقلم : محمد فضل شبلول
(الاسكندرية)

منذ زمن وأنا أتوق لقراءة ديوان شعر لاحد من شعراء المغرب العربي المعاصرين - وبصفة خاصة - الشعراء الشبان منهم .. فكل ما أتيح لى قراءته من أشعار المغرب العربى شو بعض القصائد المتفرقة فى بعض المجلات العربية

وكنت أتابع ذات يوم قريب فى بعض أعداد مجلة « الدوحة القطرية » بعض المقالات لبعض الكتاب المغاربة يتهمون أو يلقون اللوم على شعراء وكتاب ونقاد المشرق العربى لاهمالهم ما يكتب فى غرب الوطن الاكبر ، وأخذ التحليل والتفنيد يأخذ مجراه من كلا الجانبين فى بعض اعداد مجلة الدوحة .. ولكن على الرغم من متابعتى لتلك القضية الا اننى كنت أتساءل : أين انتاج هؤلاء الكتاب والشعراء والقصاصين فى مغرب الوطن حتى نحكم عليه عن طريق القراءة والتفحص وليس عن طريق الاستماع الى الآراء الاخرى دون قراءة او دون تحليل ؟

ويبدو أن هذه الخواطر التى جالت فى خاطرى قد ابحرت من الاسكندرية غربا الى تونس الشقيقة فاذا بالصديق الشاعر « الصادق شرف » يرسل لى ديوانه الأخضر او مجموعته الشعرية الثانية « **الحب مع تأجيل**

التنفيذ » فرحت جدا ـ كطفل عثر على ضالته المنشودة ـ عندما تسلمت الديوان، وقلت لنفسي : الآن ليس هناك حجة من أن دواوين الشعراء المغاربة لا تصل الينا ، فهي وان كانت لم تصل عن طريق دور النشر والتوزيع ، فهي تصل عن طريق الكاتب او الشاعر نفسه وهذا خير وأبقى .

قرأت الديوان على مهل ـ حتى لا أقع في شراك ما قرأته من قبل عن أدب المغرب العربي ـ واذا بي أجد عكس ما قرأته تماما وهذا سوف يتضح عندما أتناول الديوان بالقراءة ـ وأقول القراءة ولا أقول النقد ، ذلك أن كلمة « النقد » اصبحت مطاطة وخداعة في أيامنا هذه ، فهي تطلق على كل شيء يكتب او يقال عن أي شيء لذا فانني لن استعمل هذه الكلمة « نقد » ولكنني سأستخدم كلمة « **قراءة** » التي لم تزل محتفظة برونقها واحترامها .

قرأت الديوان واحسست انني أمام شاعر له أسلوبه الخاص ومعالجته الشعرية الخاصة به ، بل وله قاموسه اللغوي المميز ، فلا نجد مثلا أصداء لغوية لأدونيس أو للبياتي أو للسياب أو لعبد الصبور ـ كما نجدها في معظم أعمال الشعراء الشبان الآن على امتداد الساحة العربية .

واذا كان يقال : إن الشعر هو مرآة المجتمع الصادقة التي تعكس ما يدور داخله بكل أمانة وصدق فاننا نقول : إن هذا القول ينطبق على شعر « الصادق شرف » في ديوانه هذا « **الحب مع تأجيل التنفيذ** » فالديوان صورة حية للمجتمع العربي ـ وليس التونسي فحسب ـ فهو ينتقل بنا من العشق للوطن والارض العربية ـ العشق الذي يشوبه التوجع والألم في قصيدة (**صعودا يا ... العشاق الى جبل الشمس**) الى العشق للحبيبة التونسية في قصيدة (**تونسية العينين**) الى الخرافات العربية القديمة التي لم يزل صداها موجودا في بيئتنا العربية عن الغول وخطفه للاولاد الصغار ـ ولكن مع الملاحظة ان الشاعر في هذه القصيدة يثبت العكس تماما ، يثبت او يحاول ان يغير من مفاهيمنا عن هذه الخرافات القديمة فيقول : ان الغول يحب الاطفال حيث يقول الطفل لأمه :

« **لا خوف على الآن من الغول**
فالغول لطيف .. وأقول : رحيما .. وأقول .. »

ان الطفل العربي الجديد هنا يعاتب أمه لانه عرف حقيقة الغول وعرف ان الغول لا يخطف الاولاد فأمه كانت تزيف له الواقع ولذا نراه يعاتبها على لسان الشاعر قائلا :

« **وانا احببتك ـ يا أمي أكثر من حبي للغول**

لكن حديثك عن وجه الغول هو النقل المكذوب ، هو الكذب المنقول
وكذلك شأن الاقوال ..
فالغول يحب الاطفال ،

وأنا أحببت الغول كما حب الاطفال الحلوى

أحببته أكثر من حبى للمخبأ مع سلـوى .. »

إن قصيدة « **الغول يحبني يا أمي** » ص 21 قصيدة من وجهة نظرى تعتبر من أكثر قصائد الديوان نضوجا فى الرؤية وفى استخدام الرمـز والاسطـورة .

ان الصادق لم يزل ينتقل بنا عبر ديوانه ، فندخل معه منطقة الحب فـى قصيدتين « **لبيك يا عيون حبيبي** » و « **شفتاك عطش يروى** » وهما قصيدتان تتضح فيهما رقة العاطفة العربية ، وجمال اللفظ العربى عندما يكون الحديث عن الحب

« **شفتى .. على شفتيـك**

ظمأ يروى .. زاد ظمئى اليك

شفتاك بينهما نداء العندليب

فاذا ادعيت بأننى لا أستجيب

أفلا يعذبنى العذاب ؟
قولى بأنى شاعر كذاب !

فأنـا وأنت

صخب وصمت .. »

ان خفة الدم العربية التى تشوبها السخرية المرة لم يزل يتمتع بها شعراؤنا المعاصرون كما كان يتمتع بها شعراؤنا القدامى .. و « **عندما ينتشر الحب على مستوى الشعب** » تدلنا على ذلك ، فالصادق عندما يعقد المقارنة بينـه وبين لاعب الكرة يجد أن لاعب الكرة يحقق المجد بقدميه أمـا هو ــ أو أى شاعـر ومفكر ــ فانه يحقق لنفسه التعاسة بواسطة رأسه وتفكيره ..!

« **فتصير الساق عملاقا رهيبا .. ويظل الرأس كالقزم حقيرا**
بحذائى أنا حققت مصيرا .. ولكم بالرأس ضيعت المصيرا ..»

انه ليس هناك داع للدرس والامتحانات ما دامت المغريات كثيرة أمام أصحاب كرة القدم

« يا أبى : تلفزة الالوان تغرينى بأن أصبح هدافا خطيرا
هكذا يحلم طفل اليوم بالمجد وما زال صغيرا
يا أبى : دعنى من الدرس اذا ما شئت أن أصبح يوما « ملينيرا »
كيف .. وابن الشعب لا يصبح بالرأس كبيرا !؟
انما يصبح بالساق اذا واتته ريح القذف .. هدافا خطيرا
ساقه فى الصفحة الاولى
بها بيعت لشعبى الصحف اليوم كثيرا .. »

ان خصائص شعر الصادق شرف ربما تتضح فى هذه القصيدة أكثر من غيرها فالسخرية المرة من الواقع المعاش واختياره للفظ العربى من واقع الحياة وليس من واقع القاموس .. ذلك أنه كما سبق وأن ذكرت ان شعر هذه المجموعة ما هو الا مرآة عاكسة للمجتمع العربى بأدق تفصيلاته ولذا كان من الواجب اختيار ألفاظ الحياة العربية المعاشة الآن وليست الالفاظ والكلمات التى تعيش بين صفحات القاموس .. وقد فعل الشاعر هذا وكان موفقا فيه .

ويمضى بنا أبو وجدان متنقلا من واقع الى واقع ومن قصيدة الى قصيدة الى أن يسلمنا الى منطقة أقرب ما تكون الى التصوف فى قصيدته « جاوزت العبادة » انه تصوف فى الحب البشرى ليس بمعناه الواسع كما نرى عند ابن الفارض والحلاج وابن عربى ورابعة .. ولكنه تصوف فى حدود طاقات الشاعر الروحية

« يا فتاتى .. هام قلبى عبر دربك
فحياتى .. ليس فيها غير حبك
عدم كانت .. وصارت عند قربك ..
ملكوتا للهوى يحيا بقلبك

★ ★ ★

أترى أنت رسول لفؤادى .. ؟
أم ملاك فوق عرش الحب شاد .. ؟
يسكب اللحن كنور متهاد ..
أنت روح الحب فى عميقى تنادى .. الخ »

ان شاعرنا يبدو من كتاباته أنه شاعر مثقف ، فهو عنده المقدرة على ان يطوع الالفاظ او الكلمات الجديدة فى عربيتنا لرؤيته الشعرية ، فنراه فى قصيدة « **برىء وينفذ فيه الحكم** » ص 42 يستخدم الكلمات « **شحنة من دينميت** » انه يريد ان يعبر عن قوة الغريزة المكبوتة لدى الفتاة فلم يجد أقوى ولا أحدث من هذا التعبير الجديد « **شحنة دينميت** » فى المقطع :

« مال عنها .. وهى طعم لا يمل
لم تجبه .. امتد صمت كالجواب
وهى شوق وشباب ..
ودعاء مستجاب ..
شحنة من دينميت تتشهى لو سرى فيها التهاب .. »

ان شاعرنا لم يزل يميل او ينزع الى استخدام العبارات الجديدة على لغتنا العربية وخاصة تلك التى أتى بها التقدم العلمى الهائل الذى يعيشه العالم فى هذا القرن .. وعلى سبيل المثال نجد تعبيرين علميين نجح الشاعر فى اخضاعهما الى رقة الادب وسماحته وذلك فى قصيدته « **هدية .. والحب فى فوهة البركان** » ص 47 حيث نرى « **الاشعة فوق البنفسجية** » فى الجزء :

« نعم .. أجل قرأتها باعين من نور
أشعة فوق البنفسجية استذابت القشور
واختزلت حواجز الجسور »

وايضا نجد فى نفس القصيدة التعبير « **كالنجم بين جاذبيتين** » وذلك فى الجزء :

« أتوق لانتصابة الهدين
أردت أن أقول : لانتصابة النهدين
نسيت حتى النطق بالنونين ..
فنبهينى عندما ترين ..
ذاكرتى مشنوقة كجثة الشهيد بين بين
كالنجم بين جاذبيتين ..
كالأرض بين عملاقين »

ان العبرة ليست باستخدام الالفاظ العلمية المألوفة فى حياتنا اليومية ، ولكن العبرة بمدى مقدرة وسيطرة الشاعر على هذه الالفاظ واخضاعها لروح الادب والشعر .

ان الشاعر الصادق شرف استطاع بالفعل أن ينجح نجاحا مؤكدا فى اخضاع هذين التعبيرين العلميين لروح الادب ، فبالنسبة للتعبير الاول « **أشعة فوق البنفسجية استذابت القشور ..** » نجد بالفعل فى المجال العلمى ان للاشعة فوق البنفسجية قدرة هائلة وجبارة على ان تذيب القشور ، بل ما هو أعتى من القشور .. ولذا فان الشاعر عندما يستخدم تعبير « **الاشعة فوق البنفسجية** » فى هذا المجال فانه يعبر عما لا تستطيع الكلمات الادبية الرقيقة أن تعبر عنه .

أما التعبير الثانى « **كالنجم بين جاذبيتين** » **فانه** عن طريقه يريد ان يبين عدم القدرة على الحركة الارادية وعدم القدرة على التنبؤ بما سيحدث ، فلو كان النجم ذا جاذبية واحدة لعرف مصيره وتحرك أو حرك « الفعل مبنى للمجهول » الى هذا المصير أو الى هذه الجاذبية ولكن المشكلة ان النجم محصور بين جاذبيتين ، والارض محصورة بين عملاقين ، فلا مصير معلوم ولا قدرة على الحركة من وحى الارادة الواحدة أو حتى عدم الارادة الواحدة .

ان الصادق شرف لم تزل عنده نزعة التجريب ، فهو فى قصيدته « **ثلاثة ألوان من الشعر** » ص 65 وان كان قد ذيلها بقوله : « قصيدة مضاد لقصيدة نور الدين صمود بمجلة الفكر فيفرى 1977 تحت عنوان : ثلاثة ألوان من الحب » الا أنه واضح وانه يجرب فيها تجاريب جديدة .. فأنا لم تتح لى الفرصة لكى أقرأ قصيدة الاستاذ نور الدين صمود التى يتحدث عنها الصادق ، ولكن من الواضح ان الصادق يقلد ت. س. اليوت فى قصيدته الشهيرة الارض الخراب « the waste Land » والتى تنتهى بعض مقاطعها بحروف غير انقليزية وهذا ما فعله الصادق فى هذه القصيدة حيث تنتهى سطور الجزء الاول من القصيدة بحروف او بكلمات فرنسية ، أيضا بالنسبة للجزء الثالث فانه يقفى سطوره بأحرف فرنسية وهى AID آد ، ولكن ما هى الاضافة الجديدة التى أضافتها هذه الاحرف الفرنسية الثلاثة على هذا الجزء ؟ ، فبدلا من أن يكتب الشاعر الحروف العربية آد كتب بدلا منها الحروف الفرنسية AID .. انها نزعة التجريب عند الصادق شرف أضف اليها نزعة التقليد لشاعر أجنبى كبير وأضف ثالثا نزعة المعارضة التى تجلت فى هذه القصيدة .. ان شعر المعارضة كان مزدهرا فى بعض الفترات حتى ان أحمد شوقى نفسه عارض الكثيرين من

الشعراء ، فعارض على سبيل المثال الامام البوصيرى فى قصيدته الاشهر « البردة » حيث كتب شوقى « نهج البردة » كما عارض الامام الحصرى فى « يا ليل الصب متى غده ؟ » فكتب « مضناك جفاه مرقده » .. الخ

أما التجربة الرابعة من هذه القصيدة فهى ادخال حرف « الميم » حسب ما ينطق أى « ميم » وليس حسب ما يكتب « م » وعلى سبيل المثال « **اتحيى لهاث الزخارف وهى د. م !؟** » وهكذا يجرب شاعرنا.. على ان هذه التجارب لم تخرجه عن نطاق الشعر أولا . ولم تغربه عن عالم الشعر ثانيا .. انه لم يكتب شيئا غير مفهوم كما يفعل بعض أصحاب التجارب الشعرية من شعرائنا المعاصرين . كما يلاحظ ان هذا التجريب كان تجريبا فى الشكل فقط وليس فى المضمون الذى ظل صامدا فى جبهة النضال العربى من أجل تجذير الذات .

اننا لم نزل نعيش مع الديوان .. ففى قصيدة « **بين الصخرة والسوط** » ص 79 نرى بلالا بين الصخرة والسوط » فالصخرة مازالت تجثم **فى صدر بلال ،** ان **الجديد الذى** أضافه الشاعر هنا أن **الصخرة** تجثم فى الصدر **وليس فوق** الصدر فكأن الصخرة دخلت فى صدر بلال ، ان الشاعر يقول **فى المقطع الاول** الذى عنوانه « **سوط لا يعرف الراحة** »

« ما زال الجلادون وقوفا خلف الموت
ما زال بلال بين الصخرة والسوط .. جماهيرى الصوت
والصخرة ما زالت تجثم .. تجثم فى صدر بلال !
يا صدر بلال سافر بين الصخرة والسوط ولاتنتظر الاجيال .. الخ»

لم يزل هناك جديد يضيفه الشاعر .. ولم نتحدث عنه .. فهو يدعو صدر بلال الى السفر تاركا الصخرة والسوط اللذين يتعذب بهما. هناك معان جديدة ومبتكرة فى هذا الجزء فالشاعر لا يندد بالصخرة والسوط ـ ولا يغيب عن القارىء أنهما رمز لأدوات التعذيب المختلفة ـ لا يندد بهما ولا يندد بمن يستعملهما ولا حتى يتشبب ويبكى على بلال ـ الذى هو أيضا رمز لكل بطل وكل متمسك بعقيدته فى كل زمان ومكان ـ ولكنه يدعو بلالا وأمثاله الى الصمود ـ ولكن بطريق غير مباشر ـ فالصخرة من ثقلها حفرت الصدر وباتت فيه أو داخله ، وعلى الرغم من هذا يدعو الشاعر الصدر نفسه الى اعمال الحيلة حتى يتخلص منهذه الصخرة ومن هذا السوط ـ انها الارادة القومية،انهالفعل الارادى الذىسيجعل الصدر يترك الصخر ةوالسوط،ان بلالا أو ما يرمز اليه،

يضرب بالسوط على صدره وذلك أفظع وأبشع من أن يضرب بالسوط على ظهره ، فالصورة العادية ان يضرب الانسان المعذب بالسوط على ظهره . ولكن الصورة غير المألوفة ان يضرب الانسان بالسوط على صدره وفي نفس الوقت الصخرة ما زالت تجثم داخل الصدر ..

ان الجلادين يقفون خلف الموت حتى يمنعوه من الاقتراب من ذلك الانسان المعذب ، فالموت سيريح هذا الانسان .. ولكن أبدا لن يترك هؤلاء الجلادون الموت حتى يستمتع به ذلك المعذب .. وجميل جدا ان يستخدم الصادق فعل « ما زال » وكأن الحدث مازال مستمرا أمام أعيننا ويحدث في اللحظة الراهنة وكأن القرون التي خلت على تعذيب بلال تجمعت في اللحظة الحاضرة ، تجمعت عن طريق توفيق الشاعر في استخدام الفعل الذي يفيد الاستمرار « **ما زال** » بالاضافة الى استخدامه للفعل المضارع « تجثم » في قوله : « **الصخرة ما زالت تجثم** »

ان الشاعر هنا اتكأ على تراثه الديني **عندما تحدث عن الصخرة ، انه لم يلجأ الى التراث الغربي فيتخذ من صخرة سيزيف تكأة له . لقد مللنا من صخرة سيزيف وعبثية هذه الصخرة .. فاما صخرة بلال والسوط الذي يتعذب به فهما من مكوناتنا ومعتقداتنا ولذا فان صخرة بلال تؤثر فينا ، وتمس وجداننا أضعاف أضعاف ما تفعله صخرة سيزيف .**

ان الديوان « **الحب مع تأجيل التنفيذ** » يضم 19 قصيدة عزفت على جميع الاوتار من حيث الموضوعات وكان هذا العزف من خمسة بحور من بحور الشعر العربي كان أكثرها من بحر المتدارك حيث سبع قصائد منه وأدناها من بحر المتقارب حيث قصيدة واحدة وهي « ثلاثة ألوان من الشعر » أما الرجز فأربع قصائد ، الكامل قصيدتان ، أما الرمل فخمس قصائد .. وجميل ان يتم هذا التنويع في بحور الشعر في الديوان الواحد وخمسة بحور لا بأس بها وهذا يدل على تمكن الشاعر من معظم البحور الصافية ، وواضح جدا من خلال قصائد الديوان مقدرة الشاعر على التعامل مع الشعر بلونه العمودي والتفعيلي **وهذا يدل على امكانياته الجيدة في عالم الشعر** ونحن في انتظار الكثير من شاعرنا الصادق شرف .

أحمد فضل شبلول

الاسكندرية

أضداء الفكر

● ثورة المرازيق بالجنوب الغربي التونسي :

في سلسلة معارك وأبطال أصدرت دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع كتابا جديدا للاستاذ محمد المرزوقي اشترك فيه مع السيد علي المرزوقي . ويعد هذا الكتاب « صفحة من صفحات الكفاح الوطني وانتفاضة من الانتفاضات ضد المستعمر الذي حاول أن يمسحها من سجل التاريخ ويمسحها من عروبتها واسلامها فهي ثورة عارمة استمرت من سنة 1943 حتى التحقت بها الثورة الوطنية العامة سنة 1952 وتسببت في هدم عشرات المنازل بالمتفجرات وسجن مئات الاشخاص نساء ورجالا واحتدمت فيها معارك ضارية بين رجال الثورة والجيش الفرنسي وسقط فيها عشرات الشهداء وسلطت على السكان غرامات مربعة بيعت فيها أرزاقهم وصودرت أملاكهم » .

هذا الكتاب اذن حلقة من حلقات الكفاح التحريري كانت ضائعة فاثبتها المؤلفان ووضعاها وثيقة هامة بين أيدي الباحثين . فتهانينا للمؤلفين وتمنياتنا للكتاب بالرواج .

● الشهيد مصباح الجربوع :

هذا كتيب ألفه الاستاذ محمد المرزوقي عن المقاوم الشهيد مصباح الجربوع وهو صادر عن مكتبة المنار ويحكي قصة هذا الثائر الذي دوخ الجيوش الفرنسية اثناء الاستعمار واستشهد في معركة الجلاء سنة 1958 برمادة .

● من وحي سمار الليالي :

نظم برنامج سمار الليالي بالاذاعة التونسية مع الاستاذ محمد مزالي حصصا بدىء في بثها أخيرا فجادت قريحة الشاعر محسن البواب بهذه القصيدة :

« يا نفحة من مجمع ضم الاحبة والرفاقا
حول الصديق الألمعي من شد « بالفكر » النطاقا
محمد القرن الوفي « ما زال » يزهو ما تلاقى

بالاخوة النجب الألى يصفيهم الحب السماقا
أفديهم من رفقة يسعون للخير آستباقا
يبنون مجدا لا يزو ل أو يرث الله المساقا
بشرى لهم نالوا المنى من بعد ما ذابوا اشتياقا
وتمتعوا فى نشوة كانت لهم أحلى مذاقا
من خمرة الدن التى لا تورث الا احتراقا
بحديث « الفكر » لامع ما زال يرتاد الأفاقا
وينير للجيل الطريق الى العلى جاءت وفاقا
لمطامح الشعب الذى يسعى الى المجد انطلاقا
بقيادة البر الأبى حبيبه الهادى ائتلاقا
من كان للشعب المنا ر ، على العدا شد **الوثاقا**
نفديه بالروح ولا نوفيه من بر دفاقا »

● **فى « المحرر » المغربية :**

تعرضت « المحرر » المغربية فى أعدادها الاخيرة وفى ركن ـ **متابعات ثقافية من تونس** « الذى يكتبه الاديب رشيد الذوادى الى عدد من الانشطة الثقافية منها كتاب : تاريخ فلسطين وأسبوع المسرح والمهرجان القومى للشعر الشعبى ، والى ما أوردته مجلة « الفكر » فى خصوص كتاب مدير المجلة الاستاذ محمد مزالى والى المدخل النقدى الذى كتبه الاستاذ محمد مزالى لكتاب « التعليم الهيكلى للعربية الحية » والى مجموعة : « أمتاز عليك بأحزانى » ليوسف رزوقه التى صدرت عن منشورات « الأخلاء » التى يشرف عليها الشاعر الصادق شرف .

● **مجلة « الأخلاء » ثقافة .. رياضة :**

من القولة العلم : « العقل السليم فى الجسم السليم » من زاوية النظر للرياضة كقيمة أخلاقية انطلقت مجلة « الأخلاء » تحمل للقارىء ثقافة رياضية بجانب الانتاج الادبى من دراسات وقصائد وقصص .

وقد شارك في هذا العدد السادس من مجلة « الأخلاء » ديسمبر 79 ـ العدد الاول من سنتها الثانية ـ كل من الدكتور محيي الدين صابر والصادق شرف ويوسف رزوقة وجاول عزونه وأحمد فضل شبلول وفتحي لـواتي وعمـرى عبد الحميد وعبد الرحمـان باشـا ومصطفى النجار وميكيـل ايباليسيا ولطفى عز الـدين وكمال قـداوين وعبد الكريم القـرواشي ومحمد نجيب بوجنـاح وشريفه الشريف وعبد العزيز الفرشيشي ومصطفى عبيد .

هذا وقد احتوى العدد 6 س 2 من«الأخلاء» على الجزء الثاني منحديث الاستاذ **محمد مزالي** لجريدة « النهار العربي والدولي » تحت عنوان : « **التعريب مطلب تقدمي وليس انعزالا والأصالة دعوة الى العلم أيضا** » . وقد تحدث في هـذا الجزء عن « نكسة التعاليم في الجزائر » و « بين الأصالة والتفتح » و « الفلسفة الوضعية خرافة انتهت » .

● **معرض الحفر على الخشب :**

على امتداد الزمن الفاصل بين يوم 20 و 26 ديسمبر 1979 وبقاعة العرض لوزارة الاعلام قام الفنان البشير الزريبي بتقديم معـرضه الذى يحتـوى على لوحات زيتية وعلى تماثيل من الخشب المحفور بدقة ، المنحوت بذوق يدل على تحكم صاحبه في فنيات نحت الخشب .

وقد سمى تماثيله بأسماء موحية منها : طموح . استبطان . المفكر . عشق الجسد . ثروات بلادى . نفاق . وجه افريقيا وغيرها .

فنان كهذا جدير بالتشجيع بالنسبة لما عرض من قبل من أعمال الاجانب من ايطاليين وفرنسيين وغيرهم . نتمنى للفنان الزريبي مزيـدا من التفـوق والابـداع .

● **المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم :**

اجتمـع المـؤتمـر العـام للمنظمـة العـربية للتـربيـة والثقافة والعلوم مـن 24 الى 26 ديسمبـر 1979 وضـم وزراء التـربيـة العـرب وافتتحـه السيد الهادى نويرة الوزير الاول بخطاب حدد فيه مهمة التربية في البـلاد العـربية .

وأقام السيد محمد مزالي وزير التربية القومية ومدير مجلة الفكـر مادبـة عشاء مساء الثلاثاء 25 ديسمبر 1979 على شرف المشاركين في النـدوة وألقى

كلمة نوه فيها بالعمل الذى قام به وزراء التربية العرب وأكد على وجوب التعاون الوثيق بين الاقطار العربية فى مجال التربية والتعليم وبين ما قامت به تونس لتبقى عربية أثناء الكفاح التحريرى ، وما تقوم به اليوم لتساهم فى الحضارة العربية الاسلامية .

● **الاحتفال بذكرى مرور 13 قرنا على تأسيس جامع الزيتونة :**

احتفل فى غضون هذا الشهر بذكرى مرور 13 قرنا على تأسيس جامع الزيتونة وكانت فرصة لمساهمة عدد كبير من المحاضرين الذين بينوا مدى ما قامت به الجامعة الزيتونية طيلة هذه القرون من أعمال عززت الاسلام والحضارة الاسلامية وافتتح هذا الاحتفال السيد الهادى نويرة الوزير الاول واختتمه السيد محمد مزالى وزير التربية القومية ومدير مجلة الفكر

● **الفردوس والقراءة المعبرة :**

كتابان مدرسيان هامان من تأليف وتنسيق الاستاذ على اللطيف بتعاون مع بعض زملائه المربين يمتازان بجملة من النصوص الادبية الدسمة بأقلام تونسية يفيدان المعلم والمتعلم معا لان العمل كان من طرف مؤلف اشتغل طويلا بالتربية والتعليم وانطلق فى تأليف من رؤية تمثلها قولة الرسول الاعظم : « خيركم من تعلم العلم وعلمه » .

● **مجلة العلم والتعليم :**

وصلنا العدد الجديد من مجلة « العلم والتعليم » عدد 39 — س 5 — 1399 هـ. 1979 م. وقد اهتم هذا العدد بالمؤتمر العام الثانى عشر للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر الرابع عشر .

وفعلا لقد وجدنا فى العدد صدى لمؤتمر الاتحاد حيث نقرأ بعض الدراسات التى قدمت فى المؤتمر منها : « الأدب الانعزالى فى مصر » لأحمد عباس صالح .

الفهـرست

العـدد 4 ـ جـانفى 1980 السنـة الخـامسة والعشـرون

1 ـ خطوة اخرى فى سبيل ترقية الكتابة العربية .. البشير بن سلامة
6 ـ الافكـار (شعر) .... جعفر ماجد
11 ـ رعى الله أياما بتونس انها .... ابراهيم السامرائى
14 ـ كلمات منثـورة .... البشير المجدوب
16 ـ الصحراء صلة بين افريقيا السمراء واقطار المغرب الكبير .... محمد فنطر
27 ـ وهذه قصيدة أخرى رديئة جدا (شعر) .... الصادق شرف
31 ـ ألدوعـاجى قصاصا .... محمد المختار العبيدى
36 ـ الارخبيل (رواية) ـ 1 ـ .... يوسف رزوقه
43 ـ النظام التربوى الاسلامى .... البشير السالمى
53 ـ سفينة الحكمة (شعر) .... عبد الله الزناد
55 ـ حول تاريخ مدينة منزل تميم .... جلول عزونه
63 ـ ويرحل مثل النوارس ظل (شعر) .... البشير المشرقى
65 ـ هل ابتسم الثعبان ؟ (قصة) .... حياة بن الشيخ
78 ـ الاشراقات .... شعر رامبو تعريب محسن بنحميده
83 ـ هذيان (قصة) .... محمد الشمتورى
90 ـ الالم يرحل فى راسى حتى النخاع ! (شعر) .... كمال قداوين
94 ـ البطل اليسارى فى الرواية العربية المعاصرة .... المنصف وناس
104 ـ الطفل (شعر) .... عبد الرحمان الكبلوطى
107 ـ البحث عن الابن الضائع (قصة) .... محمد الصحبى الحاجى
111 ـ اشراق العشق العربى (شعر) .... محمد رضا جلالى
113 ـ العلم والاخلاق (شعر) .... حسين طنطاوى
114 ـ قراءة فى ديوان «الحب مع تاجيل التنفيذ» (مطالعات) محمد فضل شبلول
121 ـ بريد القـراء ....
123 ـ اصـداء الفكـر ....

الفكر
مجلة ثقافية

مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مزالى

رئيس التحرير : البشير بن سلامة
تصدر بتونس شهريا

الادارة : 13 نهج دار الجلد ـ تونس
تلفون : 260.237
الحساب الجارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 556 ـ تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى اوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :

اشتراك عادى بتونس والبلاد العربية 5 دنانير
اشتراك بالخارج 6،000 ستة دنانير
اشتراك الانصار 10 دنانير

- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت ام لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم :

مدير مجلة « الفكر »
صندوق البريد عدد 556 ـ تونس

EL-FIKR-revue mensuelle culturelle 25• Année N• 4 Janvier 198[illegible]

طبع الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجى سليم تونس
تحت رقم 1309 / 79 - الايداع القانوني 4 / 79